اقدم النصوص المسيحية

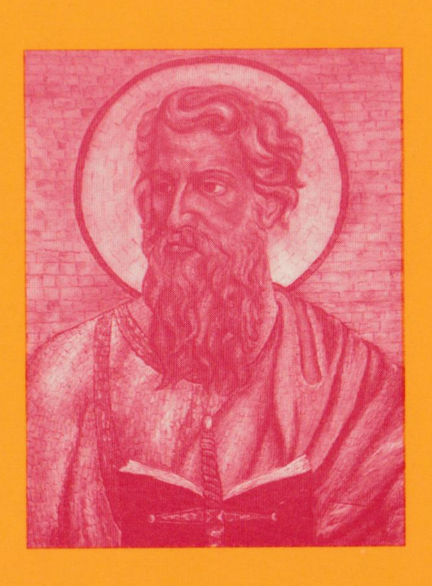
•

سِلْسِلَة النَّصوص التقريظيَّة

١

تَقاريظُ القِدِّيسِ بولُس

للقِدّيسِ يوحنّا الذَّهبيِّ الفَم



منشورات المكتبة البولسيّة

تَقاريظُ القِدِّيسِ بولُس

للقِدّيسِ يوحنّا الذّهبيِّ الفَم

طبعة أولى

٢٠٠٢

●

منشورات المكتبة البولسية

جونيه شارع القدّيس بولس - ص ب ١٢٥
هاتف ٩١١٥٦١-٠٩/٩٣٣٠٥٢ - فاكس: ٠٩/٩١٨٤٤٧
بيروت - شارع لبنان - هاتف ٠١/٤٤٨٨٠٦
زحلة - الحمراء بلازا - هاتف ٠٨/٨١٢٨٠٧

اقدم النصوص المسيحية

•

سِلْسِلَة النُّصوص التقريظيَّة

١

تَقاريظُ القِدِّيسِ بولُس

للقِدّيسِ يوحنّا الذَّهبيِّ الفَم



تعريب

الأب حنّا الفاخوري

منشورات المكتبة البولسيّة

يوحنّا الذهبيّ الفم (٣٥٤ - ٤٠٧)

أوّلاً: حياته

١. أسرته ونشأته

حياة يوحنّا الذي أكسبَتهُ بلاغتُه، منذ القرن الخامس، لقب الذهبيّ الفم، تشبه من نواحي كثيرة حياةَ عظماء الكنيسة الذين لمعوا في القرن الرابع من مثل باسيليوس الكبير، وأمبروسيوس. وُلد في أنطاكية من أبٍ ذي وظيفة عالية في الدولة اسمه سكوندس، تُوفّي بعد ولادة ابنه بزمن قليل، ومن أمّ يونانيّة اسمها أنتوسة، ترمّلت منذ العشرين من عمرها، وظلّت على ترمُّلها إلى آخر حياتها صارفةً همّها إلى تنشئة ابنها أرفع تنشئة؛ وكان يوحنّا ينمو على طموحٍ في المعرفة والكمال الإنسانيّ وقد تتلمذ هو وثيوذورس المصيصي للخطيب الوثنيّ الشهير ليبانيوس. وبعد معموديّته سنة ٣٧٢ دخل أسكيتوريون ذيوذورس الطّرسوسيّ يدرس فيه الطريقة الأنطاكيّة في التفسير الكتابيّ، ويُعمّق حياته النسكيّة والرّوحيّة، ويُرسَم شمّاسًا رسائليًّا سنة ٣٧٥.

مارس في بيته الأبويّ تقشّفًا قاسيًا، وراضَ نفسه على تطلّب الكمال، ثمّ انضوى إلى أحد النُّسّاك ولزمه أربع سنوات في ضواحي أنطاكية، ثمّ انعزل مدّة سنتين في أحد الجبال ناسكًا متوحّدًا مُكبًّا على العبادة والتأمّل، وقد استظهر في منسكه هذا قسمًا كبيرًا من الكتاب المقدّس؛ ولكن هذه العزلة أضنت

صحّته، فعاد إلى أنطاكية لمواصلة الحياة الكنسيّة، وفي سنة ٣٨١ رسمه المطران ملاتيوس شمّاسًا إنجيليًّا. وكان لشمّاس أنطاكية الإنجيليّ في ذلك العهد منزلة النائب العامّ في هذه الأيّام، تقع عليه مسؤوليّة الأعمال الخيريّة والاجتماعيّة المتعلّقة بالفقراء، والأرامل، والأيتام، والعذارى، وبتربية الأولاد وما إلى ذلك.

في هذه المرحلة، وبداعي العمل والمسؤوليّة وضع يوحنّا أبحاثه في الحياة النسكيّة، والرّهبانيّة، وفي البتوليّة، والزّواج، والترمّل، وتربية الأحداث؛ وهكذا كانت جميع أعمال يوحنّا من وحي الضرورات الراعويّة العمليّة. لقد أرسى أعلام العمل التي كان من شأنها أن توجّه حياته كلّها: العمل الخطابيّ اللامع الذي تجلّى في مواعظه، والعمل الروحيّ الذي كان يسعى فيه إلى اتّباع المسيح قدر المستطاع وإلى أقصى الحدود وَفقَ تعليم الكتاب المقدّس أي «في وقته وفي غير وقته»، العمل الذي انتهى به إلى الشهادة؛ وعملُ حياة الإيمان يكون لا في العزلة، بل في تلبية مقتضيات الرعاية «في العالم».

٢. الكاهن والأسقف

في ٢٨ من شباط سنة ٣٨٦ قام المطران فلابيانس، خليفة ملاتيوس، برسامة يوحنّا كاهنًا، بعد خمس سنوات قضاها شمّاسًا إنجيليًّا، وبعد شهرة في الوعظ والخطابة تجاوزت حدود أنطاكية، ومنذ ذلك الحين انحصر همُّه في الوعظ والخدمة الرعويّة، فكان له، في سني كهنوته الاثنتي عشرة بأنطاكية، وسني أسقفيّته الستّ بالقسطنطينيّة، سبع مئة موعظة وصلت إلينا كاملةً؛ وهي

تعالج في أكثرها موضوعاتٍ كتابيّة، وقد عالج بعضها، في سلاسل متماسكة، أسفارًا كاملة من الكتاب المقدّس. وهنالك إحدى وعشرون موعظة بليغة ألقاها الذهبيّ الفمّ بداعي الفتنة التي شبّت في القسطنطينيّة سنة ٣٨٧ احتجاجًا على زيادة الضرائب، وحُطِّمت فيها تماثيل الإمبراطور.

في أيلول سنة ٣٩٧ توفّي نكتاريوس أسقف القسطنطينيّة، فتوجّهت أنظار الإمبراطور أركاديوس إلى الذهبيّ الفمّ، بإشارة من وزيره أوتروبيوس، وخشية أن تتصدّى أنطاكية لنقل راعيها، أوعز الإمبراطور إلى حاكمها أستيريوس باصطحابه سرًّا إلى القسطنطينيّة، فدعاه إلى لقائه أمام بابِ المدينة، وأصعده إلى عربة أطلعه فيها على تعيينه أسقفًا للعاصمة، وانطلق به في شبه خفاء، وفي غير التواء، إلى القسطنطينيّة. وفي ٢٦ شباط سنة ٣٨٩ رسمه ثيوفيلس الإسكندريّ أسقفًا. وكان هذا الاختيار الإمبراطوريّ السريع ناجحًا جدًّا من الناحية الراعويّة المحلّيّة، ولكنّه كان وبالاً من الناحية السياسيّة، ذلك أنّ يوحنّا لم يكن كسلفه نكتاريوس رجل دبلوماسيّة وملاينة؛ فنكتاريوس، أحد شيوخ الحكم سابقًا، تولّى الأسقفيّة عقب استقالة غريغوريوس النّزينزيّ، ورعى القسطنطينيّة مدّة ستّ عشرة سنة لم يقم فيها أيّ خلاف بينه وبين البلاط، وكان من جرّاء المسايرة والمداراة أن تراخت حال الإكليرُس والشعب بعض التّراخي، وأنّ الرهبان الكثيرين الذين كانوا يعيشون في المدينة ليّنوا قيودهم، وذلّلوا القوانين لمبادئهم الخاصّة.

لم يعتّم يوحنّا أن يكتشف جوّ مدينته الأسقفيّة الذي يختلف اختلافًا شديدًا عن جوّ أنطاكية. وكان نُبل خلقه يأبى الممالقة، وتمسُّكه الشّديد بالواجب، وروح تجرّده، كلّ ذلك كان من شأنه أن يُثير استغراب البلاط واستياءَه. ولم تكن صلابة طبع يوحنّا واستقامته لتُمكّناه من المراوغة وممالأة هوى السلطة في ما تريد وفي ما تميل إليه؛ فلم يعبأ بما قد تجرّه عليه جرأته من مُشاكسة، فجدَّ في إصلاح أبرشيّته وفقَ تعاليم الإنجيل، وعمل، كما عمل أمبروسيوس في ميلانو، على ضبط نمط المعيشة في المطرانيّة؛ وعند اقتضاء الحاجة كان يبيع أملاكه وأملاك الكنيسة لمساعدة المُعوزين، والمرضى، والمسافرين. وقد عمل، بمساعدة نساء فاضلات من مثيلات الشمّاسة أولمبيا، على تنظيم شمّاسيّة النساء، وجمعيّات الأرامل؛ وحثّ الإكليرُس العلمانيّ على التقيّد بنظام الحياة المثاليّة، وحاول بسط سلطته الأسقفيّة على الرُّهبان؛ وأعلن في مواعظه وبصوتٍ عالٍ، مبادئ الحياة المسيحيّة، ولو قاده ذلك إلى انتقاد أعضاء البلاط الإمبراطوريّ أو من يتهاونون في التردّد إلى الكنيسة لحضور ألعاب الميادين البهلوانيّة الشائعة إذ ذاك، وقد سانده في مواقفه الشعب المسيحيّ، وجماعة من الإكليرُس والرهبان، واتّقدت في صدور غيرهم نيران الحقد، ولاسيّما في صفوف الإكليريكيّين غير المنتظمين، والرّهبان الشاردين، والمتعبّدات الفاسدات، والأثرياء المُشتبه في ثرواتهم، وسيّدات المجتمع المُستهترات، والأساقفة الغير المقيمين على مسؤوليّتهم والمتهافتين على مقامات التبجيل والتعظيم.

٣. العاصفة والنّفي

وزادت على يوحنّا النقمة والمؤامرة عندما عمل في أحد مجامع أفسس (٤٠١)، على عزل ستّة أساقفة سيمونيّين؛ وبعد إسقاط الوزير أوتروبيوس وموته انتقلت السلطة إلى الإمبرطورة أوذوكسيّة، وكانت تُضمر ليوحنّا كرهًا يزداد يومًا فيومًا؛ وكانت ترى عظاته المندّدة بالفساد تلميحات وإشارات إلى سلوكها في حياتها الإمبراطوريّة. أضف إلى ذلك أنّ يوحنّا قَبِل أوتروبيوس في حمى الكنيسة عندما نقم عليه القصر، وأنّه استقبل في الشركة فريق رهبان «الإخوة الطِّوال» الأربعة المتّهمين في مصر بتأييد أوريجانس؛ وأنّه بشعبيّته وسيطرته الكنسيّة شكّل خطرًا على أوّليّة مقام الكرسيّ الإسكندريّ فأوغر ذلك صدر ثيوفيلس الإسكندريّ؛ فكان من ذلك كلّه ومن نقمة عدّة إساقفة آخرين، أن دُعي يوحنّا في آب ٤٠٣ إلى المثول أمام ٣٦ أسقفًا في مجمع عُرف بمجمع السنديانة بالقرب من خلقيدونية، فلم يمتثل لما قام عليه ذلك المجمع من التحامل والتآمر؛ فأُسقط وعُزل، وصدر حكم إمبراطوريّ بنفيه بدعوى أنّ يوحنّا تطاول على السّلطة الإمبراطوريّة، ولكنّ ذلك النّفي لم يدُم إلاّ يومًا واحدًا بسبب حادث جرى في القصر وأقضّ مضجع أوذكسيّة، فأُعيد المنفيُّ إلى كرسيّه بين هتافات الشعب وزغرداته.

لم تدُم الهدنة طويلاً، فبعد شهرين، أي في كانون الأوّل ٤٠٣ اعترض الذهبيّ الفم على المراقص والمشاهد التي رافقت تدشين تمثال الإمبراطورة الذهبيّ في جوار الكاتدرائيّة، فغاظ

ذلك الإمبراطورة، ولاسيّما بعد العظة التي ألقاها في ذكرى عيد يوحنّا المعمدان وافتتحها بقوله:

ها إنّ هيروديّا تعود إلى الهياج والسُّخط؛

ها إنّها تضطرم غيظاً، وترقص، وتطلب رأس يوحنّا على طبق.

رأت في هذا القول تشهيرًا بها، وإشارة واضحة إلى مواقفها، وإن لم يكن يوحنّا قد أراد في كلامه ما حاول سُخطها تضمينَهُ. فصدر له الأمر بالتوقّف عن ممارسة أعماله الكنسيّة، ولكنّ الأسقف لم يكن مستعدًّا للتوقّف إلاّ بالقوّة، واشتدّت الحال بين المؤيّدين والمندّدين. وفي ليلة الفصح، وقد تأهّب الكهنة الأوفياء لتعميد أكثر من ثلاثة آلاف موعوظ، مُنع الاحتفال بقوّة السّلاح، وكاد يوحنّا يُقتل.

وإذ عجز الخصوم عن عقد مجمع لعزله لجأوا إلى القصر فلبّى لجاجتهم وأصدر أمرًا جديدًا بنفيه، فرفع قضيّته إلى أساقفة رومة وميلانو وأكيلة؛ ومنعًا للاضطراب والشّغب سلّم نفسه للجند الذين كانوا على أُهبة التدخّل، وكان ذلك في ٩ تمّوز ٤٠٤؛ فمضوا به إلى كوكوزة بأرمينية حيث لبث ثلاث سنوات استقبل فيها مُحبّيه الوافدين من أنطاكية، وراسل أصدقاءه في العاصمة ولاسيّما الشمّاسة أولمبيا التي انهارت بسبب ما عانته من ألم، وما جرّ عليها نفيُ يوحنّا من يأس. فكتب إليها الرّسائلَ يُعزّيها ويدعوها إلى الصبر والخضوع لمشيئة الله. قال في إحدى رسائله:

«من الحقّ أن تُعدّي من مَصفّ العذارى وإن كنتِ متزوّجة. فالعذراء، في نظر بولس، ليست تلك التي لا تعرف الزّواج، بل تلك التي تجعل

الربّ موضوع اهتمامها. والمسيح نفسه يُظهر فضل المحبّة على البتوليّة» (مثل العذارى/الرسالة ٨: ٤).

«شيءٌ واحد، يا أولمبيا، يجب الخوف منه، محنةٌ واحدة، الخطيئة. لم أكفّ عن القول، ولن أكفّ عن ترداد أنّ شيئًا واحدًا من شأنه أن يحزّ في نفسنا: الخطيئة» (الرسالة ٧: ١).

وفي ربيع ٤٠٧ لجّ الحقد في خصومه فنفوه إلى مدينة بيتيوس الواقعة على شاطئ البحر الأسود الشّرقيّ، وكانت المسيرة شاقّة جدًّا فنهكه الإرهاق وسوء المعاملة ومات في طريق الجلجة شهيدَ الكلمة والحقيقة، في ١٤ أيلول ٤٠٧.

المجد لله في كلّ حالٍ... لا تكفَّ عن ترديد هذه العبارة؛ واحملِ الآخرين على ترديدها. هذه العبارة كانت داعيةً إلى أكليل أيوب، هذه العبارة التي هزمت إبليس، وهي التي تُزيل كلّ اضطراب. فطيّب بها كلّ ما يحلّ بك (الرسالة ١٩٣).

ثانيًا: أعماله

يروي الرُّواة عن ليبانيوس قوله «لولا عقيدة يوحنّا المسيحيّة لكان خير من يخلفني على منابر الخطابة في أنطاكية». وقد خلّف لنا الذهبيّ الفمّ الكثير من المقالات والخطب والمواعظ والرسائل، حتّى عُدَّ من أغزر الآباء مادّة وأغناهم إفصاحًا عن شؤون الرعاية، وأوسعهم تناولاً لأمور الاجتماع والسياسة. أجرى قلمه في موضوعات شتّى استمدّها من واقع الحياة اليوميّة، ولم يغفل النظر في موضوع الملكوت الذي تصبو إليه البشريّة المفتداة بدم المسيح. وراح يرسل الحكم الروحيّة يستقيها من معين الكتاب المقدّس، ويُدلي بالآراء اللاهوتيّة يغترفها من كتابات الآباء الذين

سبقوه، ويبثّ خلاصة اختباراته الروحيّة والزهديّة في تضاعيف مواعظه ورسائله ومقالاته، مُدعَّمة بكلمات المخلّص وأقوال الرسول بولس، محكمة الصياغة، مشرقة الديباجة، خالية من النوافل، غنيّة في إيجازها وما يتوارى وراءه من معانٍ.

١. الأبحاث

– الحياة الرُّهبانيّة والكمال المسيحيّ

الحياة الرُّهبانيّة (مقارنة بين الملك والراهب): مقالة ترقى إلى عهد الاعتزال في جوار أنطاكية.

في الندامة: خطابان يعالجان النّدامة الحقيقيّة وشروطها، وهما موجّهان إلى الرّاهبين ديمتريوس واستلاخيوس.

ضدّ مُغْتابي الحياة الرهبانيّة: رسالة كتبها يوحنّا ما بين ٣٨٣ و٣٦٨ وحرّض في أقسامها الثلاثة أهلَ أنطاكية على الرّكون إلى فضيلة الرُّهبان والعهد إليهم في تنشئة أبنائهم، بعد أن تعاظمت أمور الدّعوات الرّهبانيّة وراحت تُقلق الأُسَر الأنطاكيّة. وفيها إظهار لأصالة الدّعوة الرّهبانيّة، ودحض للتُّهم التي أُلصقت بها.

تحريضٌ لثيودورس: رسالة إلى صديقه ثيودورس، الذي أصبح فيما بعد أسقفًا على مصّيصة، يحثّه فيها، بعد أن علق قلبه بفتاة تُدعى هَرميونا وأعرضَ عن الترهّب، على العودة إلى حياة النّسك والفضيلة طلبًا لملكوت الله.

في الكهنوت: من الأبحاث التي حظيت بشهرة عظيمة. وهو يقع في ستّة أجزاء. عرفه إيرونيمس سنة ٣٩٢، وقال سوزومينس

إنّ يوحنّا وضعه وهو شمّاس إنجيليّ (٣٨١ – ٣٨٦)، وقال غيره بل وضعه في فترة تنسّكه؛ وأيًّا كان تاريخ وضع الكتاب، فهو أكثر كتب يوحنّا انتشارًا. وهو في شكل حوار مع رجل اسمه باسيليوس. يبدو من جزئه الأوّل أنّ الدافع إلى وضعه هو كون يوحنّا وباسيليوس قرّرا أن يشتركا في كلّ عمل يعملانه في حياتهما؛ وعندما قبل باسيليوس رتبة الأسقفيّة تراجع يوحنّا عن قبولها، وتحمُّل مسؤوليّتها، فعاتبه باسيليوس، وراح يوحنّا يُدافع عن موقفه. وبعد كلام على محبّة الله في الدعوة المقدّسة، يعرض الجزء الثاني من الكتاب للصعوبات والأخطار التي ترافق الخدمة الرّعويّة والأسقفيّة. وفي الجزءَين الثالث والرابع عرضٌ واسع لمسؤوليّة الكاهن ولكيفيّة القيام بها: حماية العذارى والأرامل، إشاعة العدالة، الوعظ، الدّفاع عن الإيمان، حسن التّعامل مع الغير ومع أخطائهم؛ وفيما تنحصر مسؤوليّة الرّاهب في نفسه وفي خلاصه يكون الكاهن مسؤولاً عن رعيّته، ويكون من ثمّ بحاجة إلى علم أوفر، وغيرة أشمل، وقوّة أعظم، وفضيلة أعمق وأرسخ. وهكذا تكون العقوبة التي تنزل بالكاهن المتخاذل والمتهاون فوق كلّ تقدير.

إلى أرملة شابّة: كلمة تعزية وضعها يوحنّا حوالَي ٣٨٠ وزفّها إلى أرملة فقدت زوجها تراسيوس.

في عدم تكرار الزّواج: مقالة وجيزة (حوالَي سنة ٣٨٢) يستلهم فيها يوحنّا رسائل القدّيس بولس في شؤون الزواج، ويُسدي النصح إلى الأرامل لئلاّ يتزوّجن مرّةً ثانية بعد ترمّلهنّ.

في البتوليّة: مقالة يستهلّها يوحنّا بتفسير مُفصّل لرسالة

القدّيس بولس إلى الكورنثيّين (٧: ٣٨) ويخلص إلى إيثار البتوليّة على الزواج نظير معلّمه بولس.

في شأن أخوات المحبّة: رسالةٌ قاسية وجّهها الذهبيّ الفمّ في مستهلّ أسقفيّته إلى بعض كهنة أبرشيّته يمنع عليهم أن يُساكنوا عذارى منذورات للربّ لخدمة منازلهم بعلّة أنّهم يَحيون معهنّ حياة الأُخوَّة والتّقوى.

في المخالطاتِ الرّهبانيّة: رسالة راعويّة كتبها الذهبيّ الفمّ بعد ارتقائه السُّدّة البطريركيّة ووجّهها في لهجة قاسية إلى الناسكات الحبيسات لكي لا يقبلنَ الرجال في غُرَفِهنَّ بصورة دائمة.

في المجد الباطل: مقالة مكمِّلة للسابقة ينصح فيها يوحنّا الأهل ويرشدهم إلى أفضل السبل لتنشئة أبنائهم.

لم تبرز هاتان المقالتان في المجموعة اليونانيّة، بيد أنّ العلاّمتين الألمانيّين هايداخر وشولتا أثبتا صحّة انتسابهما إلى كتابات الذهبيّ الفمّ لما فيهما من قرابة في الأسلوب ولحمة في السّبك واتّصال في اختيار الموضوع.

إلى ستاجيريوس الذي يعذّبه الشيطان: كتابٌ في ثلاثة فصول وضعه وهو بعدُ شمّاس في أنطاكية، وأرسله إلى صديقه الرّاهب ستاجيريوس يُعزّيه بالمُصاب الذي ألمّ به من جرّاء ما انتابه من إحباط وقنوط روحيّ.

في أنّه ما من أحد يلحق الأذى إلاّ بنفسه: مقالة ترقى إلى زمن النّفي يتحدّث فيها يوحنّا عن الحريّة في اختيار الشرّ واقتراف الإساءة إلى الآخرين.

في عناية الله (أو إلى الذين يتعثّرون بسبب المصائب): مقالة موجّهة من المنفى إلى أولئك الذين تُثبّطهم مصاعبُ الحياة، وتقعدهم عن السّعي إلى الأصلح والأمثل، يحذّرهم فيها يوحنّا من التشاؤم لدى قراءة إرادة الله وقصده في أثناء الوجود البشريّ وتضاعيف الأحداث اليوميّة.

– **المواقف الدّفاعيّة**

في شأن القدّيس بابيلاس ضدّ يوليانس والأمم: مقالة دفاعيّة كتبها يوحنّا حوالَي سنة ٣٨٢، وأظهر فيها غلبة الديانة المسيحيّة واندحار الوثنيّة، مستوحيًا قصّة استشهاد الأسقف بابيلاس الأنطاكيّ.

ضدّ اليهود والوثنيّين: من المقالات الدفاعيّة التي اختلف المؤرّخون في تعيين زمن كتابتها (ما بين ٣٨١ – ٣٨٧). كتبها يوحنّا ليظهر لليهود واليونانيّين لاهوت المسيح بالاستناد إلى ما ورد في أقوال أنبياء العهد القديم.

٢. العظات

أغلب كتابات الذهبيّ الفم عظات يرمي من خلالها إلى التوسّع في شرح الكتب المقدّسة، وفكّ رموزها، والإبانة عن مقاصدها السّنيّة. ولقد تلا معظمها على مسامع المؤمنين إبّان خدمته في أنطاكية (٣٨٦ – ٣٩٧). وبأمانة كليّة لمدرسة أنطاكية التي كانت تخالف مدرسة الإسكندريّة في استخراج المعاني من نصوص الكتب المقدّسة، عكف يوحنّا على المعنى الحرفيّ،

وأغناه بمكنوناته الروحيّة التي غالبًا ما كان يَعْبُر منها إلى نصائح خُلقيّة ومسلكيّة تصلح لحياة المؤمنين اليوميّة. ومع إيثاره لكتابات بولس التي أفرد لها نحو نصف عظاته، فإنّه جال جولاتٍ واسعة في مختلف كتب العهدين القديم والجديد.

لم نُعْطَ الكتابات المقدّسة لكي نُبقيها في الكتب، بل لكي نحفرها، بالقراءة والتأمّل، في قلوبنا. الناموس يجب أن يُكتب على ألواح من لحم، على قلوبنا (**العظة ٣٢: ٣**).

– **العظات التفسيريّة**

أ) العهد القديم

– **في التكوين**: عظات مؤلّفة من سلسلتين متكاملتين، ألقى الأولى منهما في أثناء صوم ٣٨٦ والثانية في سنة ٣٨٨.

– **في المزامير**: عظات تعود إلى نهاية الحقبة الأنطاكيّة، اختار فيها يوحنّا ٨٥ مزمورًا تناولها بالتفسير والشرح والتعليق.

– **في أشعيا**: عظات منها ما يرقى إلى الحقبة الأنطاكيّة ومنها ما يرقى إلى زمن الأسقفيّة القسطنطينيّة.

– **في غموض الأنبياء**: عظات تتناول الأنبياء بصورة عامّة.

– **في حنّة**: خمس عظات تعود إلى سنة ٣٨٧.

– **في داود وصموئيل**: ثلاث عظات في الزمن عينه.

ب) العهد الجديد

– **في إنجيل القدّيس متّى**: مجموعة من ٩٠ عظة ألقيت

في أنطاكية سنة ٣٩٠، ناهض فيها يوحنّا المانويّين، وبيّن أنّ إله العهد القديم وإله العهد الجديد يُمثّلان مشترعًا واحدًا، وأنّ ناموس المسيح هو مكمّل لناموس العهد القديم؛ وناهض الأريوسيّين مُظهرًا أنّ الابن مساوٍ للآب في الجوهر.

– **في إنجيل القدّيس يوحنّا:** مجموعة من ٨٨ عظة تمتاز عن سابقاتها بالقِصَر والإيجاز، ألقاها يوحنّا حوالى سنة **٣٩١** وضمّنها دفاعًا عن لاهوت الابن ضدّ الأريوسيّين والأونوميّين مظهرًا بوضوح التنازل أو التخلّي الذي آثره الابن افتداءً للبشريّة.

– **في أعمال الرسل:** سلسلتان من العظات تشتمل الأولى منها على أربع عظات تتحدّث عن مقدّمة كتاب الأعمال ألقيت في فصح ٣٨٨، وتتضمّن الثانية ٥٨ عظة أُلقيت عام ٤٠٠، وتتناول الكتاب كلّه.

– **في الرسالة إلى الرومانيّين:** ٣٢ عظة ترقى إلى الحقبة الأنطاكيّة، وتُعدّ من أنصع ما وصلنا من شروحات آبائيّة لهذه الرسالة.

– **في الرسالتين إلى الكورنثيّين:** مجموعة من ٤٤ عظة في الرسالة الأولى و٣٠ في الثانية، ترقى أيضاً إلى الحقبة الأنطاكيّة. تضاف إليها سبع عظات تشرح مواضيع شتّى من الرسالتين.

– **في الرسالة إلى الغلاطيّين:** ترقى إلى الحقبة الأنطاكيّة (فصح ٣٨٨)، وهي عبارة عن تفسير متتابع للرسالة يشرح الآيات الواحدة تلو الأخرى، ويرصّ فيها الآراء التفسيريّة المختلفة.

– **في الرسالة إلى الأفسسيّين: ٢٤** عظة ألقيت كلّها في أنطاكيّة ما خلا ثلاثًا (السادسة والعاشرة والحادية عشرة) أُلقيت في القسطنطينيّة ما بين **٤٠٣** و**٤٠٤**.

– **في الرسالة إلى الفيليبيّين: ١٥** عظة ترقى إمّا إلى الحقبة الأنطاكيّة وإمّا إلى زمن القسطنطينيّة، ينشط فيها الكلام ضدّ مرقيون وآريوس السّاموساطي، على كمال الناسوت واللاهوت في المسيح.

– **في الرسالة إلى الكولوسيّين:** إثنتا عشرة عظة أُلقيت في القسطنطينيّة سنة **٣٩٩**.

– **في الرسالتين إلى التّسالونيكيّين:** إحدى عشرة عظة في الرسالة الأولى، وخمس في الثانية، ترقى إلى زمن القسطنطينيّة.

– **في الرسالة إلى تيموثاوس وتيطس وفيلمون:** ثماني عشرة عظة في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس، وعشر عظات في الثانية، وعشر عظات في الرسالة إلى تيطس، وثلاث عظات في الرسالة إلى فيلمون، ترقى كلّها إلى الحقبة الأنطاكيّة.

– **في الرسالة إلى العبرانيّين: ٣٤** عظة أُلقيت في أواخر سنوات البطريركيّة (**٤٠٣ – ٤٠٤**).

– **العظات العقائديّة والطقسيّة والدِّفاعيّة**

– **في تنزّه الله عن الإدراك:** مجموعة من اثنتي عشرة عظة ألقى يوحنّا خمسًا منها في أنطاكية (**٣٨٦ – ٣٨٧**) مناهضاً فيها الأونوميّين، وألقى سبعًا أُخَر في القسطنطينيّة (**٣٨٧**).

لقد أعجزتَني فأدهَشتني (مز ١٣٨: ١٤). لماذا «أعجزت»؟... عندما نتأمّل عظمة البحر، ونسبر أعماقه الشاسعة تصعقنا الدّهشة؛ هذا ما جرى للنبيّ عندما أكبّ على أوقيانوس الحكمة الإلهيّة الذي لا يُسبر غوره، وعراهُ الدُّوار. لقد أعجزه الأمر وأدهشه فتراجع (العظة ١: ٤).

– عظات في المعموديّة

تؤلّف هذه العظات الثماني مجموع العظات التي عثر الأب أنطوان فنغر في دير ستافرونيكيتا في جبل آثوس، سنة ١٩٥٥. وكان لهذا الاكتشاف الوقع العظيم عند كلّ المعنيّين بدراسة آثار الذهبيّ الفمّ، ولاسيّما لِمَا حمله المخطوط من جليل المُعطيات بشأن لاهوت المعموديّة وتقاليد الاحتفال بالسرّ والإعداد له، ومنها الانخراط في سلك الموعوظين وتلقّن إرشادات التهيئة إبّان الصّوم، والعزم على طرد الشياطين من النفس، والتنكّر لإبليس، والاستعداد لقبول المسيح ونيل سرّ الزيت المقدّس لإرعاب إبليس باسم الثالوث المقدّس، والحصول في ختام ذلك على مواهب المعموديّة السنيّة.

هل اطّلعت على بنود العقد؟ فبعد رفض الشيطان وأعماله وكلّ مصالحه، يحملك الكاهنُ على التصريح من جديد: «إنّي أتّحد بك أيّها المسيح». أرأيت وفرة جودته؟ لقد وهبك كنزًا كبيرًا من الخيرات، هو الذي لم يلقَ منك سوى كلماتك، ولم يعد يتذكّر ماضيك بل تغاضى عن جحودك السابق كلّه، مكتفيًا بهذه الكلمات الوجيزة.

وبما أنّك قد اعترفتَ، بعد هذا العقد والرفض والاتّحاد، بسيادة الله واتّحدت الآن بالمسيح بواسطة تلك الكلمات على غرار مقاتل تجنّد في الحَلْبة الروحيّة، فسوف يمسحك الكاهن بالزيت الروحي ويختمك معلنًا: «يُمسح فلان باسم الآب والابن والروح القدس».

فهو يعلم من الآن وصاعدًا أنّ العدوّ غاضب، يصرّ بأسنانه ويتجوّلُ كأسدٍ زائر لرؤيته الذين خضعوا في الأمسِ لاستبداده قد غابوا فجأةً متخلّين عنه، والتحقوا بالمسيح منضوين تحت طاعته. لأجل ذلك يمسحكم الكاهن واسمًا إيّاكم بإشارة الصليب لكي يحجب الآخر نظره عنكم (**عظات المعموديّة ٢ :٢١ - ٢٣**).

وما من حجّة تصدّنا عن أن نذهب إلى أنّ يوحنّا قد ألقى معظم هذه العظات على مسامع مؤمنيه في أنطاكية عندما عُهد إليه في إرشاد الموعوظين إلى الإيمان والتقوى، ويبدو ذلك بنوع خاصّ في العظة الثامنة التي تطلعنا على أمر الفلاّحين الذين وفدوا من الريف، ريف أنطاكية حيث الشعب لا ينطق باليونانيّة، ليسمعوا كلامَ الذهبيّ الفمّ ويستنيروا بحكمة تعاليمه.

إنّهم إخوةٌ لنا، وهم يتمتّعون بعضويّة جسد الكنيسة. فلنَحتضنهم كأعضاء لنا، ولنُظهر لهم محبّة حقيقيّة، ولا ننظر إلى إنّهم يَرْطنون في لغتهم، بل فلنعتبر بكلّ دقّة ما في نفسهم من حكمة، لا أنّ لهم لغةً بربريّة؛ ولندرك عمقَ فكرتهم، وأنّ ما نعمل على تلقينه نحن من الحكمة بالكلام، يُظهرونه هم بالعمل، منفّذين بالفعل الوصيّة الرسوليّة التي تقضي بأن يُحصَّل الغذاء اليوميّ بعمل اليدين (**عظات المعموديّة ٨ :١ - ٢**).

- **عظات ضدّ اليهود**: أُلقيت في أنطاكية (٣٨٦ - ٣٨٧) ردعًا للمؤمنين عن مخالطة اليهود والتردّد إلى مجامعهم.

وهنالك عظات أخرى وخطب ومراثٍ ألقاها الذهبيّ الفمّ في أحوال مختلفة وكلّها من النّمط العالي والبعيد الأثر.

- تقاريظ القدّيس بولس

١. تاريخها وطبعاتها:

ليوحنّا الذهبيّ الفم مواعظ وخطب كثيرة تناول فيها شخصيّة بولس الرسول وحياته ورسائله، والمجموعة التي ننقلها إلى العربيّة مؤلّفة من سبعة تقاريظ أُلقِيَتْ جميعها في أنطاكية ما بين سنة ٣٧٨ وسنة ٣٩٧، أي في مرحلة يوحنّا الكهنوتيّة، أي قبل انتقاله أسقفًا إلى القسطنطينيّة. وقد ظهرت هذه المجموعة منقولة إلى اللاتينيّة سنة ١٤٩٩ بعنوان De Laudibus Pauli، في كتاب تضمّن أيضاً تفسيرًا لرسائل القدّيس بولس بقلم القدّيس أوغسطينس. وفي سنة ١٥٠٩ ظهرت إيضاً في كتابٍ تضمّن معَها تفسيرًا لرسائل بولس. وفي سنة ١٥٣٦ أصدر Johannes Huche-rius Vernoliensis في باريس، وباللاتينيّة أيضاً، أعمال يوحنا الذهبيّ الفم في ستّة مجلّدات؛ وفي سنة ١٥٤٨ ظهرت طبعة Gentiuanus Hervetus Aurelius في البندقيّة. ولم يظهر النصّ اليونانيّ الأصليّ إلاّ ابتداءً من القرن السابع عشر؛ فقد اهتمّ السّير هنري ساڤيل Sir Henry Savile في انجلترا والراهب اليسوعيّ فرونتون دو دوك Franton du Duc في فرنسة بنشر أعمال يوحنّا الذهبيّ الفم، ومن ضمنها التقاريظ السبعة؛ فظهرت طبعة ساڤيل في إيتون Eton سنة ١٦١٢ في ثمانية مجلّدات، وظهرت الثانية في ستّة مجلّدات ما بين سنة ١٦٠٩ وسنة ١٦٢٤؛ ثمّ قام دون برنار دو مونفوكون Don Bernard de Monfaucon ما بين ١٧١٨ و ١٧٣٨ بنشر أعمال الذهبيّ الفم في ١٣ مجلّدًا وجعل الترجمة اللاتينيّة مقابل النص اليونانيّ الأصليّ.

في سنة ١٧٣٥ ظهرت التقاريظ السبعة مترجمةً إلى الفرنسيّة في كتابٍ ضخمٍ ضمّ أعمالاً للذهبيّ الفمّ، للأب Bonrecueil، ثمّ توالت الطّبعات، ومن أهمّها تلك التي ظهرت في باريس ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٣ للأب J. F. Bareille في ٢٠ مجلّدًا وهي تضيف إلى النصّ اليونانيّ الترجمة الفرنسيّة، وقد شملت جميع أعمال يوحنا الذهبيّ الفم، ووردت التقاريظ السبعة في المجلّد الرابع منها. وفي سنة ١٩٨٢ ظهرت طبعة «المصادر المسيحيّة» .S.C للأب Auguste Piédagnel، وفيها الأصل اليونانيّ محقّقًا بدقّة مع ترجمة فرنسيّة دقيقة وأنيقة، وهي التي نقلناها إلى العربيّة، وفيها إشادة بشخص بولس الرّسول، وفضائله، ورسالته.

٢. صورة بولس فيها:

– **بولس رجل الحزم والعزم**: يظهره الذهبيّ الفم شديدَ الشكيمة يبلغ كمال الفضيلة بكمال الأعمال، فمن شجاعة نادرة في أسفاره الرسوليّة، إلى شجاعة عاصفة في معترك الاضطهادات.

– **بولس رجل المحبّة**: المحبّة كانت في أساس شجاعته، وانطلاقه العاصف في طريق الفضيلة والغيرة الرسوليّة: محبّة بلا حدود لله وللبشر؛ ولهذه المحبّة وجوه عدّة؛ فقد أحبّ الله بكلّ قواه مقابل محبّة الله للبشر غير المحدودة البارزة في سرّي التجسُّد والفداء؛ وأحبَّ البشر حبًّا جمًّا لأنّ الله افتداهم بموت ابنه على الصّليب.

– **الحرّيّة والنعمة في قلب بولس:** وصل الذهبيّ الفم إلى عمق الشخصيّة البولسيّة فكشف الناحيتين الإنسانيّة والمسيحيّة اللتين في أساس شجاعة بولس ومحبّته، وبيّن، أنّ فضائله لم تكن ثمرة قراره الشخصيّ وحده، بل كانت أيضاً ثمرة نعمة اللّه؛ وكثيرًا ما أشار يوحنا إلى حضورِ هاتين القوّتين معًا في قلب بولس.

– **فرح بولس:** لمسَ الذهبيّ الفم الفرح الذي كانت تفيض به نفس بولس وقلبه؛ كان الفرح ناجمًا عن سرعة انتشار الإنجيل، وعن عدد الناس الكبير الدّاخلين في المسيحيّة؛ وقد ألحّ يوحنّا على إظهار بولس فوّارًا بالفرح في شدائده ومضايقه، يزداد مع الشدّة والألم فرحًا، لا لأنّ الموت سيقوده إلى المشاهدة الربّانيّة، إلى التمتّع برؤية المسيح وحسبُ، بل لأنه أيضاً يُشارك المسيح في آلامه.

* * *

كان بين بولس ويوحنا نوعٌ من تناغم وتوافق. هذا وذاك كانا من عشّاق الصراحة والمُطلق، فأظهرا في حياتهما حزمًا وشجاعة عجيبَين، ينطلقان من محبّة للّه متّقدة، ومن انقياد كامل وفرح لنعمة الربّ يسوع المسيح. في كلّ حال لم يطلب يوحنّا إلاّ أن يكون خادمًا للمسيح، وكان أبدًا يردّد: «المجد للّه في كلّ شيء»؛ ويكتب بولس، من سجنه، إلى الفيليبيّين قائلاً:

«اليوم، كما في كلّ حين، أتصرّف بجُرأة، لكي يُمجّد المسيحُ في جسدي، بالحياة كان أم بالممات، لأنّ الحياة لي هي المسيح، والموت لي ربحٌ».

٣. الرسائل

معظم الرسائل التي وصلتنا من القدّيس يوحنّا ترقى إلى زمن النفي، وأشهرها على الإطلاق رسائله التي وجّهها إلى الشماّسة أولمبيا وعددها سبعة عشرة، ورسالتان إلى البابا أنوشينتوس.

٤. الليتورجيّا

الليتورجيّا المنسوبة إلى يوحنّا الذهبيّ الفم ليس له فيها إلاّ بعض الصلوات. إنّها من وضع عدّة أجيال من المسيحيّين: فالتريصاجيون من القرن الخامس، و«يا كلمة الله» ممّا بين سنة ٥١١ وسنة ٥١٨، والشيروفيكون من نهاية القرن السادس، وقد يكون الأنافور من القرن الرابع.

ثالثًا: وجوه تعليم يوحنّا الذّهبيّ الفم

المسيحانيّة

يعلن يوحنّا الذّهبيّ الفم بوضوح إيمانه بطبيعتين متميّزتين في المسيح.

عندما أقول إنّه (المسيح) واحد، أعني الاتّحاد لا الامتزاج؛ فليس هناك طبيعة انقلبت إلى أخرى، بل طبيعة متّحدة بأخرى (٧ عب: ٣).

ليس للإنسان أن يعرف الكيف في هذا الاتّحاد، فالمسيح وحده يعرف ذلك. وكسائر الأنطاكيّين يقول يوحنّا إنّ اللوغس سكن في إنسان يسوع، كما في هيكل، وهذا القول عنده مجرّد مجاز، لا اعتراف بما ذهب إليه نسطوريوس؛ وهو كثيرًا ما يكرّر

أنّ المسيح واحد، «وأنّ الله صار بشرًا، وصنع معجزات... وأنّه الابن... الواحد مع الآب في الجوهر».

وهو إذا تكلّم على مريم العذراء، لا يستعمل الاسم «ثيوتوكس» الذي يرفضه الأنطاكيّون، ولا الاسم «خريستوتوكس»، ولا الاسم «أنثروبوتوكس» الذي يستعمله ذيوذورس الطّرسوسيّ، وذلك لأنّه لم يُطوّر المسيحانيّة التي اتّخذها عن ذيوذورس، ولم يشأ أن يتّخذ موقفًا خاصًّا في الموضوع، فاكتفى بأن يُبرز في المسيح طبيعتين متميّزتين، ولم تجد العذراء في كلامه الحرارة التي لمسناها عند الكبّادوكيّين.

الخطيئة الأصلية

اختلف الباحثون في شأن موقف يوحنّا الذهبيّ الفم من الخطيئة الأصليّة، فذهب البيلاجيّون إلى أنه لم يُصرّح بوجود خطيئة أصليّة وإن صرّح بعقوبة الأبوين الأوّلين مستندين إلى قوله في إحدى مواعظه: «نحن نُعمّد الأولاد الذين لا ينطقون وإن لم يكن عليهم خطايا» وقد ردّ عليهم أوغسطينس بقوله إن يوحنّا باستعماله صيغة الجمع «خطايا» أراد الخطايا الشخصيّة؛ واندفع يدافع عن الذهبيّ الفم ويورد نصوصاً وشواهد مختلفة؛ ولكنّه لم يستطع أن يجلو القضيّة تمامًا، وذلك أنّ الآباء الشرقيّين في القرن الرابع لم يبلغوا مبلغ الغربيّين في التصريح بهذه الحقيقة، فبقي في كلامهم على العقوبة الأصليّة تضمين للخطيئة الأصليّة اعتقادًا لا تصريحًا.

الافخارستيّا

يتحقّق اتّحاد المؤمن بالمسيح في الإفخارستيّا أكمل تحقُّق، وقد عُدّ الذهبيّ الفمّ ملفان الإفخارستيّا بسبب الأهميّة التي يُعلّقها على اتحادنا بجسد المسيح. قال:

لِنَبْنِ على المسيح، وليكُن هو أساسَنا، كما أنّ الكرمة أساس للغصن، ولا نَدعْ شيئًا يفصلُنا عنه: أقلّ انفصال عنه يهلكنا في الحال. فالغصن يحيا باتّصاله، والبناء يثبتُ بالأساس الذي يقوم عليه؛ فإذا زال الأساس انهار البناء... لا نكتفِ بالاتّصال بالمسيح، فَلْنلتصق به التصاقًا... لأنه مكتوب: «إنّ الذين يتباعدون عنك يهلكون» (مز ٢٧:٧٢). لِنَلْتَصِقْ به بالأعمال لأنّه يقول: «من كان عنده وصاياي وحفظها، فهو الذي يحبّني» (يو ١٤:٢١)/ **(العظة ٨ في ١ كو ٤)**.

يوحنّا الذهبيّ الفم، هو في العهود المسيحيّة القديمة، أصدق شاهد على تعليم الكنيسة في موضوع الإفخارستيّا؛ فهو كثيرًا ما يتكلّم على هذا السرّ، وبدقّة ما بعدها دقّة؛ فيقول مثلاً:

«إنّنا نلمس بأيدينا الجسد الذي عاش على الأرض، وإنّ المسيح، في عشائه السرّي، يشرب دمه؛ وإنّ المسيح يحضر حضورًا جوهريًّا في الخبز والخمر. وكثيرًا ما يدعو الإفخارستيّا ذبيحة، ويعلن أنّها لا تختلف عن ذبيحة الصّليب» (١٧ عب ٣).

التوبة

لا نجد عند يوحنّا الشهادة على وجود نظام معيّن لسرّ التوبة، كما ظهر ذلك في ما بعد؛ وصمتُه عن الاعتراف بالخطايا غير مستغرب، لأنّ مقترف الكبائر في الكنيسة القديمة كان يُعلن توبته

باعتراف علنيّ (في الكهنوت ٣:١٧). وكثيرًا ما كان يوحنّا يتكلّم على أنَّ مغفرة الخطايا يحصل عليها الإنسان بالاعتراف بذنبه أمام الله.

«الله وحده يجب أن يراك في اعترافك، الله الذي لا يحقرك بسبب خطاياك، بل يحرّرك من خطاياك بسبب اعترافك. ولست تمثُلُ، في هذه المحكمة، أنت والشهود، بل أنت تحكم فيها على نفسك».

مسحة المرضى

يذكر الذهبيّ الفم في بحثه عن الكهنوت (٣:٦) أنّ سلطة الكاهن لا تقف عند التّعميد، بل تمتدّ أيضاً إلى مسحة المرضى التي تمحو الخطايا (يع ٥: ١٤).

الرُّهبانيّة والحياة المسيحيّة

مارس يوحنّا الحياة النُسكيّة والحياة الرُّهبانيّة في شبابه، وقد أكسبته هذه التجربة ميلاً إلى الحياة الرسوليّة في خدمة جماعة المؤمنين، فأصبح همّه أن يرقى بمستوى الجماعة المسيحيّة الروحيّ، مقدّمًا للعلمانيّين روحانيّة تلائم حالهم وحياتهم.

على أبناء العالم والرّهبان أن يبلغوا قمّة الكمال نفسها.

الفرق بين العلمانيّ والرّاهب، في نظر يوحنّا، هو أنّ الراهب يتقيّد بنذر العفّة والفقر، وفي ما سوى ذلك يجري على الرّاهب والعلمانيّ أن يكونا في خدمة الجماعة المسيحيّة: خدمة الصلاة، والمثل الصالح، والخدمة الرسوليّة. وهكذا فالمهمّ في حياة الراهب أن يكون رسولاً، وأن يجمع ما بين رسالة الخدمة ورسالة الكلمة الإلهيّة.

مهما صُمتَ، ومهما اضَّجعتَ على الحضيض، ومهما طَعِمْتَ الرّماد وذرفت الدّموع، فإنّك لا تكون قد قمت بشيء عظيم إذا لم تكن مفيدًا للغير (في **الرسالة إلى تيطس ٦ :٣**).

الرُّهبان من علامات «الأزمنة الأخيرة»، إذ إنّهم يُحققّون منذ الآن كلمة الربّ: إنّهم كالملائكة (متى **٢٢ :٣٠**)، بعفّتهم؛ وهذه العفّة تجعلهم أقدر من غيرهم على خدمة جميع إخوتهم:

فيمَ يقوم عملُ الملائكة؟ إنّه يقومُ بخدمة الله في سبيل خلاصنا. وهكذا فإنّه لعمل ملائكيّ أن يعمل الإنسان كلّ شيء في سبيل خلاص إخوته (**العظة ٣ عب**).

وفيما يحرّض يوحنّا العلمانيّين على زيارة الأديار والاختلاء بالربّ في خلواتها، يحرّض الرّهبان على حمل «خلواتهم» إلى المدينة، خلوات محبّتهم وخدمتهم لجمهور المسيحيّين.

الأديار مناراتٌ تلتمع في الأعالي لتُنيرَ طريق من يؤمّها. إنّها مقيمة في المرفإ وتدعو الجميع إلى الاشتراك في هدوئها، ولا تسمح بأن يغرق من ينظر إليها، أو يظلّ في الظلام (العظة في تيم ١٤ :٣).

يوحنّا والأخلاقيّات

يوحنّا طبيب ماهر في موضوع الأخلاقيّات يُعالج الناس في لطف الآسي وأناته، كما يعالجهم بالصّراحة والقسوة، عندما تكون الصّراحة كشفًا للداء، والقسوة استئصالاً للشرّ والفساد. وكان هدف يوحنّا الوحيد إنماء المحبّة المسيحيّة بين المؤمنين؛ وقد قضى حياته يحارب الفساد، ولكنّه كان يعلم أنّ رحمة الله أقوى من ضعف الإنسان، وقد اتُّهِمَ في مجمع السنديانة بأنّه يُشجّعُ ارتكابَ الخطيئة بقوله:

«إذا عدتَ إلى الخطيئة فعُد إلى التوبة، ومهما تعدّدت خطاياك أَشْفِقْ منها متى عدتَ إليَّ».

لا تيأس، حذارِ اليأس! إنّي أكرّر ألف مرّة: إذا خطئتَ كلّ يوم فتُبْ كلّ يوم... نعم إنّك ستخلص لأنّ الربّ يشمل البشر بعطفٍ لا حدّ له... توبتُك وحدها لا تستطيع أن تمحو جرائمكَ، ولكنّها تستطيع ذلك إذا رافقتها رأفة الله غير المحدودة... ذنبك ذنب إنسان، وهو من ثمّ محدود، والرحمة التي تغفر هي رحمة الله، وهي من ثمّ غير محدودة... (**العظة ٣١ في رو**).

رسول الشعب

نشاط يوحنّا الرسوليّ ناجم عن عقيدة اشتراكنا في جسد المسيح التي استقاها من رسائل القدّيس بولس؛ فكلّ مسيحيّ عضوٌ من أعضاء جسد المسيح، ومُتّحد بسائر الأعضاء، ومن هنا يقع على كلّ مسيحيّ أن يكون رسولاً؛ وهكذا فالعلمانيّون، في نظر الذهبيّ الفم، هم «تكملة» أسقفيّة الأسقف، وعلى كلّ واحد منهم أن يُفصّل التعاليم الأسقفيّة ويفسّرها.

لقد أقامنا المسيح على هذه الأرض لكي ننشر النور... لكي نكون الخميرة... لكي نكون كهولاً بين الأحداث، روحانيين بين الماديّين، بذارًا لثمار غزيرة. الأعمال تقوم مقام الكلام أفضل قيام. لو سلكنا سلوكًا مسيحيًّا حقيقيًّا لزالت الوثنيّة (**العظة ١٠ : ٣ في ١ تيم**).

وكان الشعب هاجسَ يوحنّا في منفاه، يخشى ألاّ يُعيره رجال الكنيسة الاهتمام الكافي، والرّعاية الأبويّة السّاهرة؛ وكان يتحرّق في غربته عندما تبدو له صورة أبنائه وقد بلبلتهم الحيرة، وفقدوا الرُّعاة الغيورين.

خاتمة

يوحنّا الذهبيّ الفم إمامُ الكلمة، وزعيم الرّأي الحرّ، كان هزيل الجسم، قصير القامة، ولكن الكلمة كانت تَهيجهُ، وتخلق فيه عملاقًا يلين مع الضعف ويحدب عليه، ويستأسد أمام الظلم ويثور في وجهه. عاش فقيرًا فأوغر بنموذج حياته صدور المتصدّرين في المجالس، الغارقين في بحبوحة العيش وترف الحياة. ونُفيَ فكانت رسائله فيضاً من إنسانيّة غمر قلوب محبّيه ومُبغضيه.

لم تقم شهرته على عبقريّة تنظيريّة، أو على فلسفة كونيّة، بل على مواهب خطابيّة قلّما اجتمعت لإنسان، فعدّه مُعاصروه والأجيالُ المتعاقبة بعده أعظم خطيب في الكنيسة اليونانيّة. فللكلمة عنده وعند أوغسطينس سحرٌ طاغٍ؛ وفيما يحملها أوغسطينس زُبدةَ العقيدة واللاهوت، يُحمّلها يوحنّا شرارة المحبّة والآداب المسيحيّة ثمرة تلك العقيدة.

والذي يروعك عند الذهبيّ الفم ما في مواعظه من عمق وامتداد آفاق تجتمع فيهما الروح المسيحيّة، وروعة الأسلوب، وبلاغة التعبير. ومواعظه التي كانت، في أحيانٍ كثيرة، تدوم ساعتين، كانت أبدًا جذّابة، ساحرة، بما كان يتخلّلها من حالات واقعيّة، ومن مشاهد مؤثّرة، وشطحات تصويريّة تملأها روعةً وحياةً، ومن عاطفة كموج البحر تنساب طورًا هادئة، وادعة، وتهدر طورًا زاجرة رادعة.

قال نيومن: «أرى أنّ سِحر يوحنّا الذهبيّ الفم يكمُن في لطفه

وتعاطفه مع النّاس أجمعين، لا في حال قوّتهم، بل في حال ضعفهم... ومع ما كان عليه من اضطرام المحبّة الإلهيّة لم يفقد شيئًا من شعوره الإنسانيّ، فكان أشبه بعُلّيقةِ الصحراء المحترقة التي لم يذهبِ اللُّهبُ الذي كان يلفّها بشيءٍ من طبيعتها وجوهرها».

مراجع

١. طبعات وترجمات

– Opera Ommia: Savile (H.), 8 vol. Eton – 1612 – 1613, PG 47 – 64.
– Ad Theodorum Lapsum, dans Dumortier (J.) = SC 117, 1966 (texte, trad. Française et commentaire).
– Commentarius in Job, dans Sorlin (H.) et Veyrand (L.) = SC 346, 1988 (texte, trad. française et commentaire).
– De impenetralibi Dei natura, dans Daniélou (J.), Malingerg (AM) et Flacelière (R.) = SC 28, 2ème éd. 1970.

نقله إلى العربيّة الأب جورج خوّام، بعنوان «في الإله غير المدرك»، منشورات المكتبة البولسيّة، ١٩٢٢

– De Laudibus Pauli, dans Piédagnel (A.) = SC 300, 1982 (texte, trad. française et commentaire).
– De Virginate, dans Musirillo (H.) et Grillet (B.) = SC. 125, 1966 (texte, trad. française et commentaire).
– De Providentia, dans Malingery (A.M.) = SC 79, 1961 (texte, trad. française et commentaire).
– In Isaiam, dans Dumortier (J.) et Liefooghe (A.) = SC 304, 1983 (texte, trad. française et commentaire).

٢. دراسات

– Attawattter (D.), St John Chrysostome, Pastor and Preacher, Londres 1959.
– Bardy (G.), Jean Chrysostome, DT, T VIII 1947, Col. 660 – 690.
– Baur (Ch.), Saint Jean Chrysostome et ses œuvres dans l'histoire littéraire, Louvain-Paris 1907.
– Cattenoz (J.-P.), Le baptême mystère nuptial, Théologie de Saint Jean Chrysostome, Venasque, 1993.
– Dacier (H.), St Jean Chrisostome et la femme chrétienne, Paris 1907.
– Devos (P.), Saint Jean Chrysostome à Antioche, dans les quatre Homélies baptismales, dans An Boll 109, 1991, pp. 137 – 156.
– Hermant (G.), La vie de St Jean Chrysostome, Paris 1664.
– Hussiau (F.), et Mondet (J.P.), Le sacerdoce du Christ et de ses serviteurs selon les Pères de l'Eglise, Louvain, 1990.
– Martin (E.), St Jean Chrysostome, ses œuvres et son siècle, Montpellier, 1860.

– Moulard (A.), Saint Jean Chrysostome, Sa vie, son œuvre, Paris 1941.
– Newman (J.H.), Esquisses patristiques, Paris 1962.
– Soffray (M.), Recherches sur la syntaxe de Saint Jean Chrysostome d'après les homélies des statues, Paris, 1939.
– vandenberghe (B.H.), St John Chrysostome and Olympias, Londres, 1959.
– Wengerm (Antoine), Jean Chrysostome, DS, T. VIII, 1974, Col. 331 – 355.

– Moulard (A.), Saint Jean Chrysostome, Sa vie, son œuvre, Paris 1941.
– Newman (J.H.), Esquisses patristiques, Paris 1962.
– Soffray (M.), Recherches sur la syntaxe de Saint Jean Chrysostome d'après les homélies des statues, Paris, 1939.
– Vandenberghe (B.H.), St John Chrysostome and Olympias, Londres, 1959.
– Wengerm (Antoine), Jean Chrysostome, DS, T. VIII, 1974, Col. 331 – 355.

– Ad Theodorum Lapsum, dans Dumortier (J.) = SC 117, 1966 (texte, trad. française et commentaire).
– Commentarius in Job, dans Sorlin (H.) et Veyrand (L.) = SC 346, 1988 (texte, trad. française et commentaire).
– De Incomprehensibili Dei natura, dans Daniélou (J.), Malingrey (AM) et Flacelière (R.) = SC 28, 2ème éd. 1970.

نقله إلى العربية الأب جورج خوام، بعنوان على الله غير المدرك، منشورات المكتبة البولسية، ١٩٩٢.

– De Laudibus Pauli, dans Piédagnel (A.) = SC 300, 1982 (texte, trad. française et commentaire).
– De Virginitate, dans Musurillo (H.) et Grillet (B.) = SC 125, 1966 (texte, trad. française et commentaire).
– De Providentia, dans Malingrey (A.M.) = SC 79, 1961 (texte, trad. française et commentaire).
– In Isaiam, dans Dumortier (J.) et Liefooghe (A.) = SC 304, 1983 (texte, trad. française et commentaire).

٢. دراسات

– Attwater (D.), St John Chrysostome, Pastor and Preacher, Londres 1959.
– Bardy (G.), Jean Chrysostome, DT, T VIII 1947, Col. 660 – 690.
– Baur (Ch.), Saint Jean Chrysostome et ses œuvres dans l'histoire littéraire, Louvain-Paris 1907.
– Cattenoz (J.-P.), Le baptême mystère nuptial, Théologie de Saint Jean Chrysostome, Venasque, 1993.
– Ducier (H.), St Jean Chrisostome et la femme chrétienne, Paris 1907.
– Devos (P.), Saint Jean Chrysostome à Antioche, dans les quatre Homélies baptismales, dans An Boll 109, 1991, pp. 127 – 158.
– Hermant (G.), La vie de St Jean Chrysostome, Paris 1664.
– Hussian (P.) et Mondet (J.P.), Le sacerdoce du Christ et de ses serviteurs selon les Pères de l'Eglise, Louvain, 1990.
– Martin (E.), St Jean Chrysostome, ses œuvres et son siècle, Montpellier, 1860.

الخطبة الأولى

بولس يتفوّق على جميع القدّيسين

١ . لا يخطأ من يرى في نفس بولس روضةَ فضائل وفردوسًا روحيًّا، لما تألّق فيها من وفرة النّعمة، ولما برز فيها من الفلسفة اللائقة بتلك النعمة[1]. فعندما أصبح «الأداة المختارة» وتمّ تطهيره تدفّقت فيه مواهب الرّوح القدُس. وكان لنا من ذلك أن تفجّرت تلك الأنهار العجيبة، لا كما ينبوع الجنّة بفروعه الأربعة فقط، بل بفروعٍ أوفرَ عددًا إلى حدٍّ بعيد، تتدفّق كلّ يومٍ بلا انقطاع، لا لتروي الأرض، بل نفوسَ البشر فتبعَثها على إيتاء ثمار الفضيلة. فأيّ خطاب يكون على مستوى أعمال هذا الرجل العظيمة؟ أيّ لسان يستطيع التوصّل إلى صوغ مدائح شخصٍ عظيم كهذا؟ فعندما تجمع نفسٌ واحدة في ذاتها جملةَ ما عند البشرِ من فضائل، وعلى أعلى مستوى، وجملةَ ما عند الملائكة أيضاً، كيف السّبيل إلى الظفرِ بما يليق بها من روائع المديح؟ وليس الأمر عندنا مدعاةً للزوم الصّمت، بل هو بخلاف ذلك حافز لنا على الكلام. وإنّه لأسمى صيَغ التقريظ أن تُرى عظمة الفضائل فوق مستوى بلاغة الخُطَب، وأن يكون الإخفاقُ والحالةُ هذه أشدّ ألَقًا من ألف شارةِ نصر.

---

(١) يشير الخطيب إلى نعمة المعموديّة التي نالها بولس في دمشق عقبَ اهتدائه إلى المسيحيّة (أع ٩: ١٧ – ١٨؛ ٢٢: ٦ – ١٦).

٢. بماذا يليق افتتاحُ هذه المدائح؟ أيكون ذلك بغير إظهار بولس أوّلاً يجمع في ذاته حسنات البشر كلّهم أجمعين؟ فما كان للأنبياء والآباء، والصدّيقين، والرُسل أو الشهداء من شهامةٍ ونُبْلٍ وسموٍّ في النفس كان بولس يجمعه كلّه في ذات نفسهِ وعلى مستوًى من الفضيلة لم يتسنَّ لأحدٍ من أولئكَ الرجال أن يبلغه.

٣. فكّر جيّدًا. هابيل قدّم ذبيحةً[٢] فكانت مدعاةً لشهرته؛ فإذا عرضتَ للعيان تضحيةَ بولس وجدتَ أنّها تفوق الأولى بقدر ما تعلو السّماء عن الأرض. وعن أيّ تضحيةٍ تريدون أن أتحدّث؟ فهنالكَ أكثر من واحدة. أجل، كان كلَّ يومٍ يقدّم ذاته ضحيّةً، وكان إلى ذلك يقدّم هذه الذبيحة على وجهَيْن، إذا إنّه كان يموت كلّ يوم[٣]، وكان يحمل في جسده كلّ حين هذا الموت[٤].

كان على تواصلٍ مع الأخطار، وإذ كان يضحّي بإرادته، كان يُميت طبيعته الجسديّة، بحيث لم يكن دون الذّبائح التي تُذبح، بل أرفع منها شأنًا إلى حدٍّ بعيد؛ فلم يقدّم للذبح عجولاً ولا نِعاجًا، بل ذاته، وعلى وجهَين، وكلّ يومٍ؛ ولذلك حملته الجرأةُ على القول: «أمّا فقد أُرقتُ سكيبًا[٥]» مشيرًا باللفظة «سكيب» إلى دمه.

٤. لم تكفِهِ هذه الذبائح، فبعدما قدّم ذاته بسخاء، راح يقدّم الكون بأجمعه، الأرض، اليابسة والبحر، العالم الإغريقيّ وعالم البربر: أي كلّ بقعةٍ تقع تحت الشمس، وكما لو كان بجناحين

---

(٢) تك ٤: ٤. (٣) ١ كو ١٥: ٣١.
(٤) ٢ كو ٤: ١٠. (٥) ٢ تيم ٤: ٦.

استطاع أن يجول بها كلّها؛ ولم يكتفِ بالتجوُّل، بل أكبَّ على المآثم يستأصلها ويستأصل معها أشواكها، وراح يبذرُ كلمةَ التقوى الحقيقيّة، طاردًا الضَّلال ومُحِلاًّ الحقيقة، محوّلاً بشرًا إلى ملائكة، محوّلاً البشر الذين كانوا في قبضة الشيطان إلى طبيعةٍ ملائكيّةٍ. ولهذا، عندما أزفت ساعة انطلاقه من هذا العالم، بعد هذه المشقّات الكثيرة، وبعد هذه الانتصارات المتراكمة، توجّه إلى تلاميذه مشجّعًا وقال: «لو أُرِقْتُ سكيبًا على ذبيحة إيمانكم وقُربانه لفرحتُ وابتهجتُ معكم جميعًا؛ فافرحوا أنتم أيضاً بذلك وابتهجوا معي[٦]». هل من ذبيحةٍ توازي هذه الذبيحة العظيمة التي قدَّمها بولس، بعدما استلَّ سيف الرّوح، وقدّم على الهيكل من هو أرفع من السّموات؟ لا شكَّ في أنّ هابيل قتله قايين قتلةً جائِرة، وفي هذا ما زادهُ مجدًا، ولكنّي عدَّدتُ لكَ ألفَ نوعٍ من مِيتات الطّوباويّ بولس، فهي بعددِ الأيّامِ التي صرفها للوعظ بالإنجيل. وإن أردتَ مع ذلك أن تقارن ما بين المصرعَينِ اللذين مُنِيَ بهما الرَّجلانِ وجدتَ أنّ هذاك صرعه أخوهُ لغير أذًى أو إحسانٍ بادره به، وأنّ هذا قتلَهُ مَن عَمِلَ على انتشالهم من شرورٍ لا تُحصى، ومَن تحمَّلَ بسببهم جميعَ آلامه.

٥. كان نوحُ رجلاً بارًّا وكاملاً بين أبناءِ زمانه[٧]، وكان يَنفرد ببرِّهِ وكماله. وكان بولس كذلك ما بين الجميع ينفردُ بالقداسة السّامية. الأوّل نجا بنفسه وبأبنائه دونَ سواهم[٨]، أمّا الآخر فعندما غمرَ العالم طوفانٌ أشدُّ هولاً، لم يجمع ألواح خشَب، ولم

---

(٦) **فيل** ٢؛ ١٧ – ١٨.

(٧) **تك** ٦: ٩؛ ٧: ١.

(٨) **تك** ٦: ١٨؛ ٧: ٧؛ ٨: ١٦، ١٨.

يصنع فُلْكًا؛ بل آثر على معالجةِ الخشب تدبيج الرّسائلِ، وانتشل من غمرة المياه لا اثنين أو ثلاثة أو خمسة من أفراد أُسرته، بل المسكونة كلّها التي كانت على شفا الغرق. ففلْكهُ لم تكن لتذهب وتجيء في مكانٍ واحد؛ لقد بلغت أقاصي المسكونة، ومنذ ذلك العهد، وفي عهدنا هذا أيضاً، دخل الجميع هذه الفُلْك. وقد حرص بولس على أن تكون من السّعة بحيث تضمّ جموعًا غفيرةً من النّاجين، وتضمّ أيضاً أُناسًا دون البهائم إدراكًا فيحوّلهم إلى أناس يُنافسون القوّات العلويّة في السّموّ؛ وهكذا فهذه الفُلك تفوق الأولى قدرًا. فتلك الفُلك آوت غرابًا، وغرابٌ عاد فخرج منها؛ لقد آوت ذئبًا ولم تغيّر طبيعته الوحشيّة. ولم تكن تلك حالُ الأمور مع بولس: لقد استقبل ذئابًا فحوّلها إلى حملان، واستقبل صقورًا وزيغانًا فحوّلها إلى حمائم؛ وبعدما قضى على كلّ شذوذ وكلّ وحشيّة في الطبيعة البشريّة غرس فيها دعةَ الرُّوح، وإلى يومنا هذا لا تزال تلك الفُلك تواصل إبحارَها في غير خلل، لأنّ عاصفة الرّذيلة لم تفكّك أخشابها، وبعد تغلّبها على العاصفة جعلت حدًّا لكلّ اضطراب؛ ولا عجب في ذلك لأنّ أخشابها لم تُطلَ بزفتٍ وقارٍ، بل كانت مطبوعة بطابع الرّوح القدُس.

٦. إبراهيم أيضاً نال إعجابَ الجميع لأنّه ما إن قيل له «انطلِقْ من أرضكَ وعشيرتكَ»[٩] حتّى غادر وطنَه وبيتَه، وأصدقاءَه، وذويه، ولأنّ أمر الله كان كلّ شيء بالنسبة إليه. وإنّنا لَنقدُر نحن أيضاً هذا السُّلوك؛ ولكن أيّ سلوك يمكنه أن يعدِلَ سلوك بولس؟

---

(٩) **تك ١٢:١.**

هو الذي لم يغادر وطنًا، ولا بيتًا، ولا أقارب، بل العالم كلّه من أجل يسوع، والذي حقَر السماء نفسها وسماء السّموات، لا يطلبُ إلاّ أمرًا واحدًا: محبّة يسوع. اسمعْهُ وهو يُبدي موقفه في هذا الموضوع ويقول: «لا حاضر ولا مستقبل، ولا علوّ ولا عمق، تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله[١٠]». إبراهيم ألقى بنفسه في المخاطر لإنقاذِ ابنِ أخيهِ من يدِ الغُرباء؛ أمّا بولس فلم يقف همُّه عند إنقاذ ابن أخيه، أو إنقاذ ثلاث أو خمس مدُن، بل امتدّ همّه إلى العالم كلّه ينقذهُ، لا من يد الغرباء، بل من سلطان الأبالسة نفسه، مكابدًا كلّ يوم ألف شدّة، وبهذه المجازفات القتّالة التي كان يقوم بها شخصيًّا كان يوفّر للغير أمنًا وسلامًا عظيمين. وأوج فضائل ابراهيم وذروة فلسفته أنّه قدّم ابنه ذبيحة. وفي هذا الموضوع أيضاً نجد بولس في المقدّمة: لم يقدّم ابنه للذبح بل قدّم نفسه، وكم مرّةً قدّمها! لقد سبق الكلام على ذلك.

٧. وإسحق؟ ما الذي يبعث فيه على الإعجاب؟ جمٌّ من الفضائل ولاسيّما التَّسامُح. حفر آبارًا وطُرد من حقولٍ كان يملكها، فلم يأخذ بالثّأر، بل رُدمَت آبارهُ فتحمَّل ذلك بصبرٍ وراح ينتقل من مكانٍ إلى آخر، مبتعدًا عن مهاجمة من كانوا يُسيئونَ إليه، ومتخلّيًا عمّا كان يملكه، إلى أن خمدت نيران شهواتهم الجائرة. أمّا بولس الذي رأى الحجارة تردم، لا آبارَهُ، بل جسدَه، لم يلتزم كإسحق التخلّي عن موقعهِ، بل جابهَ

---

(١٠) رو ٨: ٣٨ – ٣٩.

راجميه، وعمِلَ على رفعهم إلى السماء: فبقدر ما كان هذا الينبوع يُردَم بقدر ذلك كان يندفع بشدّة، وبقدر ذلك كانت الأنهار الصّادرة عنه تتعدّد لتساعدَه على الصُّمود.

٨. وابنُ إسحق، ألم يُشِدِ الكتابُ بثباته؟ وأيُّ نفسٍ من ماسٍ تستطيع أن تبيّن صبرَ بولس؟ إنّه لم يكن عبدًا مدّةَ أربعَ عشرة سنة[١١]، بل مُدَّة حياتهِ كلّها لعروسِ المسيح، ولم يقف عذابه عند لَهَبِ النهارِ وصقيعِ الليل، بل تجاوز ذلك إلى عواصف وشدائد لا تُحصى، فمن جَلْدٍ إلى رَجْمٍ، إلى مصارعةِ الوحوشِ الضارية، إلى مقاومةِ أنواءِ البحر، إلى تحمُّلِ الجوعِ الشديد والبردِ القارسِ نهارًا وليلاً، إلى سلوك الطُّرقِ الوعرةِ ومدارجِ القفز جاهدًا في اجتيازها[١٢].

٩. ويوسف ألم يكن عفيفًا[١٣]؟ وإنّي لأخشى أن أكون سخيفًا إذا حاولتُ أن أشيد ببولس في هذا الموضوع، هو الذي صلب نفسه زُهدًا بالعالم، والذي حجب نظرَه لا عن فتنةِ الأجسامِ وحسب، بل عن شتّى مفاتن الدُّنيا، على أنّها غُبارٌ ورماد، أو كان كالجثمان المائت أمام الجيفة البالية. كان يحرص أشدّ الحرص على إخماد سَوراتِ الطبيعة فلم تقوَ الشّهوة البشريّة قطّ على النّيل منه.

١٠. وأيّوب، ألم يَستحوذ على إعجابِ جميع البشر؟ كان ذلك من حقِّه، لأنّه كان رجلاً جبّارًا يمكن تشبيهه ببولس

(١١) تك ٢٩: ١٥ – ٣٠.

(١٢) ١ كو ١٥: ٣٢؛ ٢ كو ١١: ٢٥ – ٢٧.

(١٣) تك ٣٩: ٧ – ٢٠.

لصبره، ونقاء حياته، وللشهادة التي كان يؤدّيها لله، ولنضاله المستميت والنصر العظيم الذي كلّله. وبولس، لم يكن نضاله هكذا لعدّة أشهر، بل لعدّة سنوات. لم يُرطّب وجهَ الأرض بقَيْحِهِ، ولم يجلس على الرّماد، بل كان يهاجم أبدًا أنيابَ الأَسَد الخفيّ، ويقاومُ ما لا يُحصى من الشّدائد؛ كان أشدَّ صلابةً من أيّ صخرة؛ لم يتلقَّ ملامةَ ثلاثة أو أربعة أصدقاء، بل ملامة جميع الإخوة الكذبَة الذين رفضوا الإيمان، وقد تعرّض للبُصاق والشّتائم[(١٤)].

١١. وكان أيّوب مِضيافًا، وشديدَ الحَدْبِ على المساكين، وذلك أمرٌ لا يُنكر له؛ ولكنّ همّه هذا كان دونَ همّ بولس، بقدر ما يختلف الجسد عن الرّوح؛ فما كان يُبديه الأوّلُ أمام عاهاتِ الجسد، كان يعانيه الثاني في جراحِ النفس، مُنْهضاً من اعتلَّ عقله وتعطَّلَ، وكاسيًا من كانوا عُراةً وبحاجة إلى لباس الفلسفة. وفي الحقل المادّيّ نفسه تفوّق بولس على أيّوب، لأنّ فضل الإنسان يكون أجزل عندما يتصدّق على البؤساء وهو نفسه في حالة العوز والجوع، لا عندما يتصدّق من فضوله. ولئن كان بيت أيّوب مُشرع الباب لكلّ طارق، فنفس بولس كانت تمتدّ إلى أقاصي الأرض، وتستقبل الشعوبَ كلّها؛ لهذا كان يقول: «لستم متضايقين فينا، إنّما أنتم متضايقون في أحشائكم[(١٥)]». كان أيّوب يتصدّق على المعوزين وهو يملك قطعانًا كثيرة من الغنم والبقر؛ أمّا بولس فلم يكن في حوزته إلاّ جسده يُساعد به ذوي الحاجة، ويقول: «أنتم أنفسكم تعلمون أنّ هاتينِ اليدينِ كانتا

(١٤) أي ٢: ٨؛ ٧: ٥. (١٥) ٢ كو ٦: ١٢.

تخدمان حاجاتي وحاجات الذين كانوا معي[١٦]»؛ كان دَخْلُ عمله الشخصيّ دخلَ من كان الجوع يمضّهم ويُضنيهم.

١٢. ومع ذلك ألم تكن الآلام والدُّود لأيّوب سبب آلام شديدة لا تطاق[١٧]؟ بلى، إنّي أُقرُّ بذلك، ولكنّك إذا قارنتها بما قاسى بولس من الجلدِ سحابةَ السّنين الطوال، والجوع المتواصل، والعُري، والسَّلاسل والسّجن، والأخطار والفِخاخ المنصوبة من مواطنيه، والغرباء، والطُّغاة، والأرض كلّها، وفضلاً عن ذلك ما قاسى من الشّدائد الأشدّ عنفًا، أعني آلام الرّوح عند رؤية العاثرين، والاهتمام بالكنائس كلّها، والحمّى التي كانت تعتريه عندما كان يفكّر في كلّ واحد من العاثرين[١٨]، تجد أنّ النّفس التي تحمّلت هذه المِحَن كانت أشدّ صلابة من الصّخر، وكانت تتغلّبُ على الحديد والماس. فما كان أيّوب يُعانيه في جسده، كان بولس يُعانيه في روحه، والهمّ الذي كان يحمله في شأن كلّ من كانوا يشكّكون كان ينهشُ نفسَه على أمضّ ما كان يفعله الدّود؛ ولهذا كان أبدًا يذرفُ الدّموعَ في النهار وفي الليل، وبأوجاعٍ أشدّ من أوجاع المرأة التي تَلِد، عندما كان يُفكّر في كلّ واحد من أولئك العاثرين.[١٩] وقد بلغ به التحرُّق الروحيّ إلى القول: «يا أولادي الصّغار الذين أتمخّضُ بهم من جديد[٢٠]».

١٣. مَن بعد أيّوب يحملنا على الإعجاب؟ لا شكّ في أنّه موسى. وهذا أيضاً تفوَّق عليه بولس إلى حدٍّ بعيد. فإكليلُ فضائل

---

(١٦) أع ٢٠: ٣٤.
(١٧) تك ٧: ٥؛ ٢ – ٩.
(١٨) ٢ كو ١١: ٢٨ – ٢٩.
(١٩) رو ٩: ٣.
(٢٠) غلا ٤: ١٩.

هذه النفس المقدّسة، وفضيلته العُظمى في كونه آثر أن يكون مُبْسلاً، ومَمْحُوًّا اسمه في كتاب الله من أجل أن يخلص اليهود[٢١]. ولئن اختار موسى أن يهلك مع آخرين، فبولس، من غير ما تطلُّب لهلاكِ أناسٍ آخرين، بل لخلاصهم، آثر أن يكون وحدَه مبسلاً عن المجد الأبديّ. وفضلاً عن ذلك فإن ناضل الأوّلُ الفرعون، فقد ناضل الثاني الشّيطان كلّ يوم؛ هذاك جَهِدَ في الذّودِ عن شعبٍ واحد، وهذا في خلاص المسكونة كلّها، وجسده يتَصبّبُ لا عَرَقًا، بل دمًا في سبيل تحويل العالم لا المأهولِ فقط بل غير المأهولِ أيضاً إلى الطريق القديم، لا العالم اليونانيّ فقط، بل عالم الأُمم أيضاً.

١٤. من الممكن أن نعرض أيضاً ليشوع وصموئيل وسائر الأنبياء؛ ولكن تجنُّبًا للإغراق في إطالةِ هذه الخطبة نتوقّف عند من يحتلّ بينهم بولس المرتبة الأولى؛ فعندما يظهر تفوّقُ بولس على هؤلاء يزول الدّاعي إلى التوقُّف عند غيرهم. فَمَن هم هؤلاء الزُّعماء؟ بعدَ الآنفِ ذكرُهم هل من أحدٍ للذّكر غير داود، وإيليّا ويوحنّا هذين الرَّجلَيْنِ اللذينِ كان الأوّلُ منهما السابق لمجيءِ الربّ الأوّل كما سيكون الثاني السّابق لمجيئه الثاني، واللّذين لهذا السبب يشتركان في الاسم الواحد[٢٢]. فما ميزة داود؟ قُنوته ومحبّته لله[٢٣]. هل من أحدٍ مارس هاتين الفضيلتين معًا أكثر من نفس بولسَ أو بالقدر نفسه؟ وما الدّاعي إلى الإعجاب عند إيليّا؟

---

(٢١) رو ٩:٣.

(٢٢) راجع ملاخي ٣:٢٣.

(٢٣) مز ٥٠؛ ٢ صم ١٢:١٣.

هل كونُه حبَسَ ماء السّماء؟ ونشر المجاعة، وأهبط النّار؟ أنا لا أعتقدُ ذلك، ولكنّها الغيرة التي يُظهرها أمام الربّ[٢٤]، وحميّتُه التي تفوق توقُّدَ النار. وإنّك إذا تأمّلتَ غيرةَ بولسَ تجد أَنَّ الرّسول متفوّق عليه فيها بقدر ما كان هذا النبيّ متفوّقًا على غيره. فأيّ شيءٍ يعدلُ هذا القول الذي فاهَ به في غيرته على مجدِ الربّ: «أودُّ لو أكون أنا نفسي مُبسَلاً عن المسيح من أجل إخوتي ذوي قُرباي بحسب الجسد[٢٥] ...» ولهذا إذ كانت السّماوات في مُتناوَله مع أكاليلها ومكافآتها، كان يتردّد ويُرجئ قائلاً: «بيدَ أنّ التلبُّث في الجسد أشدّ لزومًا من أجلكم[٢٦]». وهكذا فلا العالم المنظور نفسه، ولا العالم الروحانيّ، كافيان، في نظره، للتعبير عن محبّته وغيرته، فكان يتخيّل عالمًا آخر غير موجود ليظهر مدى أمانيه ورغباته[٢٧]. ويوحنّا ألم يُقم على أكل الجراد وعسَل البرّ؟ ولكنّ بولس كان يعيش في العالم كما كان يوحنّا يعيش في البرّيّة؛ ولكنّه بدلاً من أن يطعم جرادًا وعسلاً برّيًّا كانت مائدته بسيطة جدًّا وخالية من الضروريّ، بسبب انهماكه في التبشير بالإنجيل. ويوحنّا ألم يكن شديدَ الجرأة وقد أطلق لسانه بحريّة أمام هيرودس؟ هو كذلك، وبولس أيضاً أغلق لا فَم واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، بل أفواه عددٍ كبيرٍ من الطُّغاة أمثاله، بل أشدّ منه طغيانًا وسوءًا[٢٨].

١٥. بقي أن نقارِن بولس بالملائكة. فَلْنغادر إذن الأرض،

---

(٢٤) ٣ ملو ١٩: ١٠. (٢٥) رو ٩: ٣.
(٢٦) فيل ١: ٢٤. (٢٧) رو ٨: ٣٩.
(٢٨) متى ٣: ٤؛ لو ١: ٦.

ولْنَصعدْ إلى قِبابِ السَّموات. ولا يتّهمنَّ أحدٌ عملنا هذا بالتهوّر؛ فالكتاب المقدّس يدعو يوحنّا ملاكًا[٢٩]، ويدعو الكهنة كذلك[٣٠]، فكيف يكون من الغريب أن نقارن بالقوّات السماويّة مَن كان أسمى فضيلةً من جميع البشر؟ فيمَ تقوم عظَمة الملائكة؟ في الخضوع الكامل الله، وهذا ما قاله داود في سورة إعجابه: «باركوا الربَّ يا ملائكته العاملين بكلمتهِ عند سماعِ صوتِ كلامه[٣١]». ما من صفةٍ تعدِلُ هذه الصّفة ولو كانوا ألف مرّة مجرّدين من الجسم والمادّة. فالذي يجعلهم طوباويّين فوقَ كلّ شيء هو أنّهم يخضعون لوصايا الله وأوامره، وأنّهم لا يرفضون الطّاعة أبدًا، والواقع أنّ بولس التزم الطّاعة هو أيضاً بكلّ دقّة: لم يكتفِ بالعمل بمشيئة الله وكلمته، بل بوصاياه أيضاً، وأبعدَ من وصاياه، وكان يشير إلى ذلك عندما يقول: «فما ثوابي إذن؟ هو أنّي إذا بشّرْتُ أُبشّرُ بإنجيل المسيح مجّانًا[٣٢]». بأيّ صفةٍ أخرى رائعة ينعتُ بها النبيّ الملائكة؟ إنّه يقول: «الصّانع ملائكته أرواحًا وخُدّامه لهيبَ نار[٣٣]» نجد الأمرَ نفسه عند بولس؛ لقد طاف المسكونة كلّها كالريح والنّار، وطهّر العالم. ولكن ألم يكن بعد قد حصل على سعادة السماء؟ إنّها لَلْفضيلةُ العُظمى أن يسلك هذا السلوك على الأرض، وأن يُنافس، وهو في جسده المائت، القوّاتِ السّماويّة التي لا جسمَ لها.

١٦. ألا نكون أهلاً للحكم القاسي إذا لم نعمل قدرَ المستطاع

---

(٢٩) متى ١١: ١٠؛ مر ١: ٢؛ لو ٧: ٢٧.

(٣٠) ملا ٢: ٧. (٣١) مز ١٠٢: ٢٠

(٣٢) ١ كو ٩: ١٨. (٣٣) مز ١٠٣: ٤.

على الاقتداء بهذا الرّجلِ الذي جمع في ذاته جميع الفضائل؟ فَلْنُفكِّر في الأمر، ولنتجنّب هذه التُّهمة، ولنبذل قصارى الجهد لنبلغَ ما بلغه بولس من الغيرة، لكي نحصل نحن أيضاً على الصلاح الذي حصل عليه، بنعمة ومحبّة ربّنا يسوع المسيح، الذي يليق به المجد والقدرة، الآن وأبدًا، وإلى دهر الداهرين. آمين.

الخطبة الثانية

بولس المثل الأعلى في الفضيلة

محبّته للمسيح

١ . ما هو الإنسان؟ وإلى أين يمتدّ نُبْلُ طبيعتنا، وإلى أيّ درجة من الفضيلة يستطيع الوصول هذا الكائن الحيّ؟ لقد أظهر ذلك بولس أكثر من أيّ إنسان آخر. منذ ظهوره، وإلى يومنا هذا، لا يزالُ منتصبًا ههنا، مدافعًا بصوته الدّاوي عن معلّمه أمام جميع من يوجّهون إليه اللوم لكونه خلَقَنا على ما نحن عليه، مُحرّضاً على الفضيلة، مُغلقًا أفواهَ المجدّفين الوقحة، ومبيّنًا لهم أنَّ الفرق ما بين البشر وبين الملائكة ليس بالكبير إذا أردنا النّظر إلى ذواتنا بعمق. ولم تكن لبولس طبيعةٌ غير طبيعتنا، ونفس تختلف عن نفسنا، ولم يقطن عالمًا غير عالمنا، ولكنّه نشأ على الأرض نفسها، وفي البلد نفسه، وفقَ الأنظمة والعادات الواحدة، تفوّق على جميع البشر منذ كان في العالم بشر. أين من قالوا إنّ الفضيلة صعبة والرَّذيلة سهلة؟ بولس يُسفِّهُهم قائلاً: «الضيقُ الحاليّ الخفيف يُنشئ لنا ثِقلَ مجدٍ أبديًّا، يفوق القياس في السموّ[1]». فإذا كان الضّيق الذي يذكرهُ خفيفًا فكم بالأحرى تكونُ متعُ الحياة الطّبيعيّة خفيفةً وقليلةَ الشأن.

---

(١) ٢ كور ٤ :١٧.

٢. والعجيبُ في الأمر أنّه، في فورانِ غيرته، لم تَعقْهُ المشقّاتُ والأتعابُ عن تطلُّبِ الفضيلة، بل إنّه لم يتطلَّبْها لجزاءٍ يرتجيه؛ ونحن، وإن كنّا ننتظرُ الجزاءَ، فلا نتحمّل المشقّة للحصول عليها؛ أمّا بولس فلم تكن المكافأة حافزَ سعيه، بل كان يسعى إلى الفضيلة في ذاتها، يحبّها، والعوائق التي تعترضها في الظّاهر، كان يجتازها بوثبةٍ سريعةٍ ويُسرٍ كامل. لم يتذرّع بالضّعف الطّبيعيّ، ولا بالانهماك في العمل، ولا بسورة الطّبيعة وطغيانها، ولا بأيّ شيءٍ آخر. لا شكّ في أنّه كان أوفر هموماً، وأعظم هموماً من القوّاد وجميع أساطين العالم، ومع ذلك كان أبدًا في القمّة. عندما كانت الأخطار تزداد في وجهه، كان له من ذاته وفي ذاته سورةُ غيرة جديدة، وكان يفسِّرُ ذلك بقوله: «أنسى ما ورائي وأمتدّ إلى ما أمامي، ساعيًا نحو الأمد[٢]». لئن كان ينتظر الموت، فهو يدعو إلى الاشتراك في هذه الفرحة ويقول: «فافرحوا أنتم أيضاً بذلك[٣]»؛ وعندما كانت الأخطارُ تُحيقُ به وتشدُّ عليه الخناق، أو كانت الشّتائمُ تنصبُّ عليه، كان يفيضُ سرورًا ويقول للكورنثيّين: «أجل إنّي أُسَرُّ بالأوهان، والإهانات، والضّيقات، والاضطهادات[٤]».

٣. هذه الشّدائد دعاها «أسلحة البرّ[٥]»، موضحًا أنّه كان بها يَجني أهمَّ الثّمار، وأنّه كان على جميع الجبهات لا يقوى أعداؤه على النّيل منه. فهو في كلّ مكان مجلود، مُفْتَرى ومشنّع عليه، كما لو كان يسير في موكب انتصار، وكما لو كان ينصبُ أبدًا

---

(٢) فيل ٣ : ١٣.
(٣) فيل ٢ : ١٨.
(٤) ٢ كو ١٢ : ١٠.
(٥) ٢ كو ٦ : ٧.

على الأرض أعلام فخار، فهو يفخر ويشكر لله نعمته، قائلاً: «فشكرًا لله الذي يقودنا على الدوام من نصر إلى نصر في المسيح[٦]». كان يسعى وراء الخزي والمهانة لأجل التبشيرِ بالإنجيل أكثر ممّا نسعى نحن إلى الغنى، إلى المشقّات أكثر ممّا غيره إلى الرّاحة، وليس أكثر فسحبُ، بل أكثر وأكثر، وإلى الحزن أيضاً أكثر ممّا غيره إلى المسرّة، وإلى الصلاة من أجل أعدائهِ أكثر ممّا غيره إلى اللّعنات. إنّه يقلب موازين الأشياء، أو بالحريّ نحن الذين قلبناها، أمّا هو فالناموس الذي وضعه الله كان يتقيّد به بكلّ دقّة. وهذه المواقف كلّها تتّفق والطّبيعة، بخلاف مواقفنا، كيف البرهان على ذلك؟ بولس، وإن بشرًا، كان يسعى بل يُسرع إلى هذه المكاره دون تلك المباهج.

٤. شيءٌ واحد كان يعنيه أن يخشاه أو يتجنّبَهُ: إهانة الله، ولا شيءَ آخر. ومن ثمَّ انحصر مُبتغاه في ما يرضي الله، وعندما أقول «انحصر» لا أعني خيرات هذا العالم وحسب، بل الخيرات الآتية أيضاً. لا تُحدِّثني عن المدُن، عن الشعوب، عن الملوك، عن الجيوش المُسلَّحة، عن الثّروات، عن مناصب المَرازِبة أو الحكّام، فجميع هذه الكنوز في عينيه نسيج عنكبوت؛ وبعكس ذلك اجعل في مكان ذلك الخيرات السماويّة نفسها تجد محبّته المضطرمة للمسيح فوق كلّ شيء. فهذا الرَّجُل المقيَّد بهذه المحبّة لم تَسْتهوِهِ مناصب الملائكة، ولا رؤساء الملائكة، ولا أيّ شيء آخر؛ فإنَّه كان يملك في ذاته أغنى الكنوز، محبّة المسيح: مع هذه المحبّة كان يَعُدُّ نفسه أسعدَ البشر، بدون هذه المحبّة لم يكن

(٦) ٢ كو ٢: ١٤.

يطمح إلى أن يكون له مقام في مصفّ السّيادات والرئاسات والقوّات؛ مع هذه المحبّة كان بعكس ذلك يُؤثر أن يكون بين أدنى البشر، وبين من يؤدَّبون، على أن يكون، بدون هذه المحبّة، بين العظماء وأربابِ المشارف.

٥. لم يكن في نظره إلاّ عقوبةٌ واحدة: فقْدانُ هذه المحبّة. هذا هو جهنّم، هذا هو العذاب، هذا هو الشدائد التي لا يُحصى لها عدد؛ كما أنّ سعادته العظمى هي الحصول على هذه المحبّة: هذا هو الحياة، هذا هو العالم بأسره، هذا هو نصيب الملائكة، هذا هو الحاضر، هذا هو المستقبل، هذا هو الملكوت، هذا هو الموعد، هذا هو فيض الخير. أمّا الأمور التي لا تنتهي إلى هذه الغاية فهو لا يجد فيها ما يرضي أو ما يُسيء، وكلّ ما هو ماديّ ومرئيّ هو عنده بموقع العشب الذي في طريق الزّوال. الطّغاةُ في نظره، والشعوب المضطرمة غضبًا هي بموقع الذُّباب؛ الموت، والأعذبة، وشتّى أنواع العقوبات هي عنده ألعاب أطفال، ما لم تُنزَل فيه من أجل المسيح، فتكون هذه المضايق والحالةُ هذه محبوبةً لديه، والسّلاسل[7] حِلْيةً أبهى من التاج على رأس نيرون. كان يعيش في سجنه كما لو كان في السّماء، وكان يتقبّل الجراح وضربات المجالد بفرح يفوق فرح الذين يخطفون جائزة القتال، ويرتضي المشقّات ارتضاءَهُ للمكافآت، مع اعتقاده أنّ المشقّات مكافأة، ولهذا يدعوها نعمة[8].

---

(٧) أع ٢٠: ٢٣، ٢٤؛ فيل ١: ١٢ – ١٤. (٨) فيل ١: ٢٩.

٦. فكِّرْ جيّدًا. كانت مكافأةً له أن يموت ويكون مع المسيح، وكان الكفاح أن يتلبَّث في الجسد[٩]، ومع ذلك آثر الحالة الثانية لأنّها في نظرِهِ أشدّ ألحاحًا؛ أن يكون مُبْسلاً، مُنفصلاً عن المسيح، هذا هو القَلق والمشقّة، أمّا أن يكون مع المسيح فذاك هو المكافأة، ومع ذلك فهو يؤثرُ الحالة الأولى من أجل المسيح[١٠]. وقد يقولون إنّ كلّ ذلك من أجل المسيح كان مُستعذَبًا عنده. وأنا أيضاً أُعلنُ أنّ ما هو لنا سبب تخاذُل كان يجد فيه المسرّة العظمى. ولكن فيمَ الكلامُ على الأخطار وسائر الشّدائد؟ كان بولس في همٍّ متواصلٍ يُجري على لسانه هذا القول: «مَن يضعُفُ ولا أضعفَ أنا، من يعثرُ ولا أحترقَ أنا؟[١١]» وقد يقولون إنّ في الهمّ متعة، والواقع أنّ كثيرين ممّن فقدوا أبناءَهم، إذا وجدوا مجالاً لما يَبْغونَ من النواحِ والنحيب، كانت في ذلك تعزيتهم، وإذا مُنعوا اشتدَّ حزنُهم وجواهم. هكذا كان بولس في الحقيقة، يبكي ليلاً ونهارًا[١٢]، ويجد في البكاءِ تعزيةً؛ وما من أحد رثى لمآسيهِ الخاصّة كما رثى هذا الرّجلُ لمآسي الآخرين. بماذا كان من الممكن أن يشعرَ وهو يفكّر في هلاكِ اليهودِ الذين كان يتمنّى أن يُحرم من المجدِ السماويّ في سبيل خلاصهم[١٣]؟ فممّا لا شكَّ فيه أنّ فكرة هلاكِهِم كانت أقسى ما يعانيه. ولو لم يكنِ الأمرُ كذلك لما فاهَ بهذا التّمنّي؛ ومثلُ هذا الإيثار كان أقلَّ ثِقَلاً، وأوفر تعزيةً؛ وهذه الرَّغبة لم تكن مجرّدَ كلام، بل كانت حقيقيّة

---

(٩) فيل ١: ٢٣ – ٢٤. (١٠) رو ٩: ٣.

(١١) ٢ كو ١١: ٢٩. (١٢) أع ٢٠: ٣١.

(١٣) رو ٩: ٣.

إلى حدِّ القول: «إنّ لي في قلبي غمًّا شديدًا ووجعًا لا ينقطع»[١٤].

٧. فهذا الذي كان كلّ يوم، إذا صحّ التّعبير، يتوجّع من أجل سكّان المسكونة، من أجلِهم جميعًا بغيرِ تمييز، شعوبًا ومدائن، ومن أجل كلِّ واحدٍ بمفردِهِ، بماذا يمكنُ تشبيهُهُ؟ بأيّ حديد؟ بأيّ ماس؟ بأيّ ألفاظ نصِفُ نفسًا كهذه؟ نفسٌ من ذهب أو من ماس؟ فإذا كانت أصلبَ من أيّ ماس، كانت في الوقتِ نفسه أغلى ثمنًا منَ الذهب والجواهر؛ أمّا الماس فكانت تفوقه قوّةً، وأمّا الذهب فكانت تفوقُه قيمةً. بماذا إذَن نشبّهها؟ بلا شيءٍ من الموجودات. لو أمكن أن يكونَ الذهبُ ماسًا، والماسُ ذهبًا، لوجدنا فيهما، على وجهٍ ما، التشبيهَ المناسب. ولكن ما الدّاعي إلى المقارنةِ ما بين الذهب والماس؟ ضَعْ في كفّةِ ميزان العالم بأسره، وفي الكفّةِ الأُخرى نفسَ بولس، تجد أنَّ نفسَ بولس هي الرّاجحة. ولئن تكلّم هكذا وهو يُشيدُ بمن برزوا في جلود الغنَم، وعاشوا في الكهوف[١٥]. وذلك في رقعةٍ صغيرةٍ من الأرض، فإنّنا نستطيعُ أن نقول القولَ نفسه في شأنِه هو الذي تساوي قيمته قيمة البشرِ أجمعين. فإذا لم يكنِ العالمُ مستحقًّا له، فما الذي يكون له مستحقًّا؟ قد تكونُ السماء؟ وهي نفسها غير كافية. فلئن آثر بولس محبّةَ معلّمه على السّماء وعلى جميع مفاتنِ السماء، فكم بالأحرى سيؤثر هذا المعلّمُ بولسَ على جميع ما في السموات، هو الذي يفوقُ صلاحُهُ صلاحَ بولس بقدر ما يفوقُ

(١٤) رو ٩: ٢. (١٥) عب ١١: ٣٧، ٣٨.

الصّلاحُ السُّوءَ. اللهُ لا يُحبّنا كما نحبّهُ نحن، بل على درجةٍ أسمى لا يستطيعُ الكلامُ أن يُعبِّرَ عنها.

٨. تأمَّل مثلاً بأيّ النِّعَم وجدَه أهلاً حتّى قبل القيامة الآتية. لقد اختطفه إلى الفردوس، ورفعهُ إلى السّماء الثالثة، وأشركَهُ في أمورٍ تفوقُ الوصف، لا يحلّ لإنسانٍ أن ينطقَ بها[(١٦)]. وهذا صحيح؛ فإنَّهُ، وإن كان يطأُ الأَرض، كان يعمل وكأنّه يجتازها في صحبةِ الملائكةِ؛ وإن كان مقيّدًا بقيدِ الجسدِ المائت، فإنّه لم يكن دون الملائكةِ طُهرًا؛ وإن كان تحت وطأةِ نوازل ضخمة، فإنّه كان يطمح إلى مساواةِ القوّاتِ العلويّة؛ فكان يطوفُ الأرضَ كلّها، وكأنّه يطير بجناحَين؛ وكان يحْقِرُ الأتعابَ والأخطار وكأنه كائِنٌ منزَّهٌ عن المادّة؛ وكان يحْقِر خيراتِ الأرض وكأنه حصل على ميراث السماء؛ وكان أبدًا على يقظة وكأنّه يعيش بين هذه القوّات التي لا جسمَ لها.

كثيرًا ما وُكِلَ أمرُ بعض الشعوب إلى ملائكة، وما من ملاكٍ وجّه الشعبَ الذي وُكِلَ إليه أمرُه كما فعل بولس بالنسبةِ إلى العالمِ كلِّه. لا تقُلْ لي إنّ بولس لم يكن هو الموجِّه في الحقيقة، فهذا ما أقوله أنا أيضاً، ولكنّه، وإن لم يَسُقْ هو شخصيًّا هذا العمل إلى نهايته، قد استحقّ المدائحَ التي وُجّهت إليهم، لأنّه أصبح أهلاً لهذه النعمة العُظمى. ميخائيل وُكِلَ إليهِ أمرُ الشعب اليهودي[(١٧)]، أمّا بولس فأمرُ الأرضِ والبحر، والكون المأهول وغير المأهول.

---

(١٦) ٢ كو ١٢: ٢ – ٤.

(١٧) دا ١٠: ١٣؛ ٢١:١٢: ١.

٩. حاشَ لي أن أقول هذا القول للحطّ من شأن الملائكة، ولكنّي أقوله لأبيّن أنّه من المُمكن للإنسانِ أن يعيشَ في صحبتهم وَيَتَشبّهَ بهم. لماذا لم يُكلَّف الملائكة بهذه الرّسالة؟ حتّى لا يكون لك عُذرٌ تتذرّعُ به فتَسترخي وتتستّر بستارِ الفرق بين طبيعتكَ وطبيعتهم، وتلجأ إلى النوم والإهمال. وهكذا كانتِ المعجزةُ أعظم وأروع. وكيف لا يكون من المُعجزِ والخارق أن تقوى على الموتِ كلمةٌ تتساقط من لسانٍ صُنعَ من صَلْصال[١٨]، وتُحطّم قيودَ الخطيئة، وتُنهض الرَّجل الكسيح[١٩]، وتُحوّل الأرض إلى سماء؟ هذا ما يجعلني أُعظّمُ قدرةَ الله، وأقف ذاهلاً أمام غيرةِ بولس الذي نال مثل هذه النعمة العظيمة، وكانت نفسُه على أشدّ الأُهبة لذلك.

١٠ – إنّي أُحرّضكم على ألاّ تكتفوا بالإعجاب، وأن تُقبلوا على التمثُّلِ بمثال الفضيلة الأصيلة ليكون لنا جميعًا نصيبٌ في أكاليلِ المجدِ التي استحقّها. إذا كنتَ تستغربُ قولي بأنّك إن عشتَ بهذا الكمال تنال المكافأة نفسها، فاسمع ما يقول بولس:

«لقد جاهدتُ الجهادَ الحسن، وأتممتُ شَوطي، وحفِظتُ الإيمانَ، إنّما يبقى إكليل البرِّ المحفوظ لي، الذي سيَجْذبني به، في ذلك اليوم، الربُّ الدّيّانُ، العادل؛ لا إيّاي فقط، بل جميع الذين انتظروا ظهورَهُ بمحبّة[٢٠]» ألا ترى كيف يدعو جميع البشر إلى أن يكون لهم النصيب نفسه؟

فإذا كان الجزاءُ نفسُه في متناوَلِ الجميع، فَلنبذُلْ قُصارى

---

(١٨) أع ٢٠: ٩ – ١٢. (١٩) أع ١٤: ٨: ١٠.

(٢٠) ٢ تيم ٤: ٧، ٨.

جهدنا في الاستعدادِ لأن نستحقّ النّعَم التي وُعِدنا بها: ولا نقصِرْ نظرنا على أهميّة الفضائل وعظمتها، بل فَلْنمدَّهُ أيضاً إلى شدّةِ الغيرة التي قادت بولس إلى نعمةٍ عظيمةٍ كهذه، وإلى كونه بشرًا اشترك في طبيعتِنا وفي شتّى أحوالِها. هكذا تبدو لنا الفضائل الصّعبة المنال سهلةً ويسيرة، وبعد مشقّة هذه الحياة السّريعة ننعمُ أبدًا بهذا الإكليل الذي لا يفنى. بنعمة ومحبّة سيّدنا يسوع المسيح الذي يملكُ المجدَ والقدرةَ، الآن ودائمًا. وإلى دهرِ الدّاهرين. آمين.

الخطيئة، وتنهض الرجل الكسيح[19]، وتحول [illegible]
هذا ما يجعلني أعظّمُ قدرة الله، وأقف ذاهلاً أمام غيرة بولس الذي نال مثل هذه النعمة العظيمة، وكانت نفسه على أشدّ الأهبة لذلك.

١٠ – إني أحرِّضكم على ألاَّ تكتفوا بالإعجاب، وأن تُقبلوا على التمثّل بمثال الفضيلة الأصيلة ليكون لنا جميعًا نصيبٌ في أكاليل المجد التي استحقّها. إذا كنتَ تستغربُ قولي بأنك إن عشتَ بهذا الكمال تنال المكافأة نفسها، فاسمع ما يقول بولس:

«لقد جاهدتُ الجهادَ الحسن، وأتممتُ شوطي، وحفظتُ الإيمان، إنّما يبقى إكليلُ البرِّ المحفوظ لي، الذي سيجلّدنني به، في ذلك اليوم، الربُّ الدّيّانُ، العادل، لا إيّاي فقط، بل جميع الذين انتظروا ظهورهُ بمحبّة»[20]، ألا ترى كيف يدعو جميع البشر إلى أن يكون لهم النصيب نفسه؟

فإذا كان الجزاءُ نفسُه في متناول الجميع، فلنبذلْ قُصارى

---

(١٨) أع ٢٠: ٩ – ١٢. (١٩) أع ١٤: ٨ – ١٠.
(٢٠) ٢ تيم ٤: ٧ – ٨.

الخطبة الثالثة

محبّة بولس للبشر وحَدْبهُ عليهم

١. يُبيّن لنا الطّوباويّ بولس إلى أيّ حدّ تمتدّ قوّة الغيرة عند الإنسان، وإمكان انطلاقنا نحو السّماء نفسها، بدون لجوء إلى الملائكة، ورؤساء الملائكة، وسائر القوّات العلويّة، ينطلق تارةً من مثلهِ الشخصيّ يدعونا به إلى الاقتداء بالمسيح قائلاً: «إقتدوا بي كما أنّي أنا أقتدي بالمسيح[١]»، وطورًا يُغفل الكلام عن نفسه شخصيًّا، ويَصعد بنا مباشرةً نحو الله، قائلاً: «كونوا مُقتدين بالله كأولادٍ أحبّاء[٢]». وإذ كان يرى أن لا شيء يقود إلى هذا الاقتداء مثل الحياة التي تطلب صالح الجميع، يُضيف: «اسلُكوا في المحبّة[٣]». وبعد قوله «اقتدوا بي» ينتقل حالاً إلى المحبّة، ويُظهر أنّ هذه الفضيلة أشدّ الفضائل إدناءً من الله، وهي تفوقها جميعًا لكونها لا تنحصر كغيرها في المدى البشريّ، كمقاومة الشهوة الجسديّة، ومحاربة الشدّة، والصّمود الشّرِس أمام الميل إلى الجشع، ومقاومة الغضب؛ فالمحبّة، بخلاف ذلك، عملٌ مشترك في ما بينَنا وبين الله؛ لهذا قال المسيح: «صلّوا لأجل الذين يضطهدونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السّموات[٤]».

---

(١) ١ كور ١١:١. (٢) أف ٥:١.

(٣) أف ٥:٢. (٤) متى ٥:٤٤ – ٤٥.

٢. وإذ كان بولس يدرك أنّ في هذا قمّة الصّلاح، انطلق بكلّ قواه يقدّم البرهان؛ فمن الثابت أن لا أحد أحبّ أعداءَه كما أحبَّهم بولس، ولا أحد نافسه في الإحسان الذي قدّمه للذين نَصَبوا له الفِخاخ، ولا أحد تحمَّلَ الأعذبةَ التي تحمّلها هو من أجل الذين ضايقوه: أجل، لم يأبه لآلامِه، ولم يفكّر إلاّ في النّسب الطبيعيّ الذي كان يربطه بهم؛ وبمقدار ما كانت شراستهم تُشدّد عليه الخِناق، كان يزداد رأفةً بهم ويرثي لما هم عليه من حماقة، وكأبٍ عطوفٍ على ابنٍ له مجنون – فبقدر ما يشتدّ هياجُ هذا المجنون ويهمر الأرض بشراسة يشتدّ ألم الأب ويذرف الدّموع – هكذا كان بولس يزداد اهتمامًا لهم مع ما اكتشفه منهم من نوايا شيطانيّة ومن أمراضٍ نفسيّة تحفزهم على الإيقاع به.

٣. إسمَعْ، مثلاً بأيّ لطف، وبأيّ شفقة يحدّثنا عنهم، عن أولئك الذين جلدوه خمس مرّات(٥)، والذين رجموه(٦)، والذين كبّلوه، والذين كانوا متعطّشين إلى دمه ويرغبون كلّ يوم أن يمزّقوه يقول: «إنّي أشهدُ لهم أنّ فيهم غيرةً لله، إلاّ أنّها عن غير معرفة بليغة(٧)». وكان، بخلاف ذلك، يضبط من كانوا يعملون على مقاومتهم قائلاً: «لا تَسْتَكبر إذن، بل خَفْ، لأنّه، إن كان الله لم يُبْقِ على الفروع الطَّبيعيّة، فلا يُبقي عليك أيضاً(٨)». وإذ كان يعلم حكمَ اللهِ عليهم، كان يعمل ما بوسعه: أبدًا يذرفُ الدّموعَ من أجلهم، يتوجّع، ينهض في وجه من

---

(٥) ٢ كو ١١: ٢٤. (٦) أع ١٤: ١٩؛ ٢ كو ١١: ٢٥.
(٧) رو ١٠: ٢. (٨) رو ١٠: ٢.

يعمل على الإيقاع بهم، ويبذلُ المُستطاع في أن يجد لهم ظِلَّ عُذر. وإذ كان لا يجد سبيلاً إلى إقناعهم بالكلام لصلابةِ قلوبهم وقسوتها، كان يلجأ أبدًا إلى الصلاة كما يقول: «يا إخوة، إنّ مُنية قلبي وابتهالي إلى الله لأجلهم، هما أن يخلصوا[9].» إنّه يفتح لأعينهم أبوابَ آمال خلاصيّة، قائلاً: «إنّ مواهب الله ودعوتَهُ هي بلا نَدامة[10]»؛ كان بذلك يريد أن يبعد عنهم اليأس الأخير والهلاك. فجميع هذه الأقوال تدلُّ على قلبٍ حافلٍ بالحدْبِ عليهم والمحبّة المضطرمة لهم. والحال هي هي عندما يقول: «يأتي الفادي إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية من يعقوب[11]». أجل، كان يشعر بجرح عميق، ووخزةٍ محرقة عندما يراهم هالكين. وكان يتخيّلُ لنفسه أساليبَ مختلفة للتخفيف من وطأةِ آلامه، تارةً «سيأتي الفادي وأبعد المعاصي عن يعقوب»، وطورًا «كذلك هم أيضاً قد عَصَوا الآن من أجل رحمتكم، لكي يُرحَموا هم أيضًا بتوبتهم[12]».

٤. وهذا ما يفعلهُ أيضاً إرميا بإلحاح، وبمُحاوَلة الدّفاع عن الخطأة، فتارةً يقول: «إن كانت آثامُنا تشهدُ علينا فلأجل اسمِك افْعَل[13]» وتارةً أُخرى يقول: «إنّي عالمٌ يا ربّ أنّه ليس للبشر طريقُهُ وليس للإنسان أن يَسيرَ ويُسدّد خطواته[14]»؛ ونقرأ في مكان آخر: «اذْكُرْ أنّنا تُراب[15]». إنّه أسلوب مَن يتوسّل من أجلِ المُذنبين، ولو لم يكن لديه ما يعزّز قوله، فيتخيّل أعذارًا واهية،

(٩) رو ١٠ : ١.
(١٠) رو ١١ : ٢٩.
(١١) أش ٥٥ : ٢٠.
(١٢) رو ١١ : ٣١.
(١٣) إر : ١٤ : ٧.
(١٤) إر ١٠ : ٢٣.
(١٥) مز ١٠٢ : ١٤.

إن لم تُؤخذ على وجه التقرير، وإن لم تذهب بالحكم، فإنّها تسكب العزاء في قلوب الآسين لهلاكهم. فلا نأخُذنّ هذه الأعذار على لفظها، ولنعدَّها تأوّهات نفس حزينة تحاول الدّفاع عن المذنبين، ولْنَفْهمِ الكلام على هذا النحو.

٥. هل حصر بولس سلوكَه هذا مع اليهود دون الوثنيّين؟ لا، بل شمل رفقُهُ مواطنيه والغُرباء. اسمع ما يقوله لتيموثاوس: «عبد الربّ يجب عليه أن لا يُشاجر، بل أن يكونَ ذا رفقٍ نحو الجميع، قادرًا على التّعليم، صبورًا، يؤدّب المقاومين في عِلم، عسى أن يُؤْتِيَهم اللّه توبةً، فيبلغوا إلى معرفة الحقّ، ويستفيقوا، بعد إذ ينجون من فخِّ إبليس الذي اصطادهم لقضاءِ مشيئته[(١٦)]». هل تريد أن تسمع أيضاً ما يقول للخطأة؟ اسمَعْ ما كتبه للكورنثيّين: «إنّي لأخشى، إذا ما أتيتُكم، أن أجدَكم على ما لا أحبّ[(١٧)]»، وحالاً بعد ذلك يقول: «أخشى عندَ عودتي إليكم أن يُذلَّني إلهي في شأنكم، وأن أنوح على كثيرين من الذين خطئوا آنفًا، ولم يتوبوا عمّا أتَوا من النّجاسة والزّنى والفِسق[(١٨)]». وعندما يكتب للغلاطيّين يقول: «يا أولادي الصغار، الذين أتمخّض بهم من جديد إلى أن يتصوّر المسيحُ فيهم[(١٩)]». وعندما يعرض لموضوع الزّاني نراه يحدبُ عليه ويقول: «أُحرِّضكم أن تؤكّدوا له محبّتكم[(٢٠)]». وعندما حان موعدُ انفصاله انفصل بدموعٍ غزيرة، وقال: «أجل، إنّي في كآبةٍ شديدة، وكَرْب القلبِ كتبتُ إليكم، وفي دموعٍ كثيرة، لا لتغتمّوا بل لِتعرفوا ما

---

(١٦) ٢ تيم ٢: ٢٤ – ٢٦. (١٧) ٢ كو ١٢: ٢٠.
(١٨) ٢ كو ١٢: ٢١. (١٩) غلا ٤: ١٩. (٢٠) ٢ كو ٢: ٨.

عندي من فَرْطِ المحبّة لكم»[٢١]. وأيضاً: «صرتُ لليهود كيهوديّ لأربحَ اليهود؛ وللّذين تحت النّاموس كأنّي تحت النّاموس، لأربحَ الذين تحت الناموس؛ وصرتُ للضّعفاءِ ضعيفًا لأربحَ الضُّعفاء؛ وصرتُ كُلَّ شيءٍ لأُخلّص، على كلّ حال، قومًا منهم»[٢٢]. وفي مكانٍ آخر: «لأجعلَ كلّ إنسان كاملاً في المسيح يسوع»[٢٣].

٦. هل رأيتَ نفسًا تتغلّبُ على الأرضِ كلّها؟ لقد ودّ لو يجعل كلّ إنسان كاملاً، ويقدّم الجميع للمسيح. وقد قدّمهم له. فكما لو كان أبًا للكون بأجمعِهِ كان يُكثر من التحرّك، والتنقّل، والسّعي لإدخال جميع البشر الى الملكوت، مقدّمًا العون، محرّضاً، عاقدًا الوعود، مصلّيًا ومتوسّلاً، باعثًا الرُّعبَ في الشّياطين، مطاردًا المُفسدين، بحضوره أو برسائله، بخُطَبِهِ أو بأفعاله، بتلاميذهِ أو بنفسه، منهضاً العاثرين، مثبّتًا الصّامدين، مُشجّعًا الواهين، مُعتنيًا بمن كانوا في الضّيق، باثًّا روحَ المقاومة في الفاترين، باعثًا بصوته الذُّعرَ في قلوب خصومه، راشقًا أعداءهُ بنظراته الثاقبة؛ كان أشبه بقائدٍ أعلى يقوم بنفسه مقامَ جنديّ المُشاة، والفارس، والمقاتل في الجبهة، ومساعد الفارس، والقائم بجميع الأعمال في سبيل فرقتِهِ.

٧. ولم يقتصر نشاطه على المدى الروحيّ، بل تعدّاه إلى المدى المادّيّ في اهتمامٍ شديدٍ وغيرةٍ لا حدّ لها. اسمَعْه مثلاً يقول، وهو يكتبُ إلى شعبٍ بكامله، ويتوسّط لآمرأةٍ واحدة: «أوصيكم بِفيبي أُختِنا، خادمةِ الكنيسة التي في كنخريَّة، لكي

(٢١) ٢ كو ٢: ٤. (٢٢) ١ كو ٩: ٢٠ – ٢٢. (٢٣) كول ١: ٢٨.

تقبلوها في الربّ على ما يليقُ بالقدّيسين، وتقدّموا لها كلّ ما تحتاج إليه منكم»[٢٤]؛ وأيضاً: «إنّكم تعرفون أهلَ بيت استفانا، فانقادوا أنتم أيضاً لمثل هؤلاء الرّجال»[٢٥]؛ وأيضاً: «اقدُروا مثلَ هؤلاءِ الرّجال»[٢٦]. ومثل هذا الاهتمام من قِبَل القدّيس دليلٌ على عطفٍ شديد ومحبّة عميقة. وهذا ما جرى لأليشاع بالنسبة إلى المرأة التي استقبلته: لم يكتفِ بمساعدتها روحيًّا، ولكنّه بادر إلى مقابلة تكلّفها من أجله بمساعدات ماديّة، ومن هنا السّؤال: «هل من حاجةٍ أكلّمُ فيها الملك أو رئيس الجيش»[٢٧].

٨. لماذا ينالك العجبُ من أن يتقدّم بولس بهذه التّوصيات في رسائله، وهو الذي كان يدعو الناس إليه، ويرى أنّه من الضروريّ الالتفات إلى حاجات الناس المعيشيّة، وتسجيل ذلك في إحدى رسائله. ففي رسالته إلى تيطس يقول: «أمّا زيناس مُعلّم الشّرع، وأبلّس فجهّزهما باعتناء للسّفر، لكي لا يُعْوِزهما شيء»[٢٨]. فإذا كان يُعير سفرَهما مثلَ هذا الاهتمام، فكم يكون مدى اهتمامه لو حدث أن رآهما في خطر. تأمَّلْهُ مثلاً وهو يكتبُ إلى فيلمون، واعجَبْ للعطف الشديد الذي يُحيط به أُنسيموس، ولِمدَى التعقُّل والاهتمام الذي تلمسه في تعبيره. هذا الذي لم يَستنكف من أن يدبّج رسالةً كاملة من أجل عبدٍ فارّ سلبَ سيّده، كم كانت نفسه عظيمة وحافلة بمحبّة الآخرين. لم يكنِ العيبُ في نظره إلاّ في التخلّفِ عن عملٍ مفيد وجب القيامُ به. ولهذا كان يحرّك السماءَ والأرض، ولا يتردّدُ أبدًا، من أجلِ مَن

---

(٢٤) رو ١٦: ١، ٢. (٢٥) ١ كو ١٦: ١٥، ١٦.
(٢٦) ١ كو ١٦: ١٨. (٢٧) ٤ ملو ٤: ١٣. (٢٨) تي ٣: ١٣.

ينعمون بالخلاص، في بذلِ أقوالِهِ ومقتنياتِه، ونفسه. فهذا الذي أسلم ذاته مرّات كثيرة للموت، لا يوفّر مُقتَنياتهِ إن كانت لهُ مقتنيات. ولِمَ القول «إن كانت له مقتنيات»، فهوَ وإن خلت يده من كلّ شيء، يمكننا القول عنه إنّه لم يوفّرها؟ ولا تظنّ أن في هذا الكلام لغزًا؛ كلاَّ! فإنّه عندما كتب إلى الكورنثيّين قال: «أنا بكلّ سرور أُنْفِق كلّ شيء، بل أُنفِقُ نفسي لأجلِ نفوسكم[٢٩]». وعندما خاطب الأفسسيّين قال: «وأنتم أنفسكم تعلمون أنّ هاتينِ اليدَيْنِ كانتا تخدمان حاجاتي وحاجات الذين كانوا معي[٣٠]».

٩. كان بولس عظيمًا، وكان في موضوع أسمى الفضائل، المحبّة، أشدّ اتّقادًا من اللّهَب. وكما أنّ الحديد الذي يسقط في النّار يتحوّل بمُجملهِ إلى نارٍ، كذلك كان هو، إذا اشتعلت فيه نارُ المحبّة يتحوّل كلّيًّا إلى محبّة. وكما لو كان أبًا للبشر جميعًا في غير استثناء، كان يقتدي بأولئك الذين بذلوا حياتهم، بل تفوّق على جميع الآباء في ما هو من النّاحيتين الماديّة والرّوحيّة، ببذله المقتنيات، والأقوال، والجسد والروح، أي كلّ شيء في سبيل من كان يشملهم بحبّه وحنانه. لهذا كان يسمّي المحبّة «تمام النّاموس[٣١]»، و«رباط الكمال[٣٢]»، وأمّ جميع الخيُور، ومبدأ الفضيلة وغايتها. لهذا كان يقول أيضاً: «هذه الوصيّة إنّما غايتُها المحبّة النّاجمة عن قلبٍ طاهر، وضميرٍ صالح[٣٣]»، ويقول أيضاً:

---

(٢٩) ٢ كو ١٢: ١٥. (٣٠) أع ٢٠: ٣٤.

(٣١) رو ١٣: ٨، ١٠. (٣٢) كول ٣: ١٤. (٣٣) ١ تيم ١: ٥.

«إنّ هذه الوصايا: لا تزنِ، لا تقتُلْ، وكلّ وصيّة أُخرى تُلخّص في هذه الكلمة: أحِببْ قريبَك كنفسك[٣٤]».

١٠. فإذ كانت المحبّة مبدأ كلّ خير وغايته، كان علينا أن نقتدي ببولس في هذه الفضيلة، لأنها هي التي أوصلتهُ إلى ما كان عليه. لا تُحدِّثني عن الأموات الذين بعثهم[٣٥]، ولا البُرص الذين طهّرهم[٣٦]: اللّه لا يطلبُ منك مثلَ هذه الأعمال، حصِّلْ محبّة بولس تحصُلْ على إكليلٍ كامل. مَن يُثبتُ ذلك؟ يثبتهُ هذا الذي نمَّى في نفسه المحبّة، الذي فضّلها على المُعجزات والخوارق، وعلى ألف موهبة أُخرى. إنّه يعرف فاعليّتها وقد خبرها ومارسها ممارسة عميقة. إنّها هي التي بلغت به إلى ما كان عليه، ولا شيءَ جعله على هذا القدر من الاستحقاق سوى قوّة المحبّة. لهذا كان يقول: «توقوا إلى المواهب العظمى وأنا أُريكم الطّريق المُثلى[٣٧]»، مشيرًا إلى المحبّة، أجمل الطُّرق وأيسرها. لنمضِ إذن في سبيلها غير مُتوانين، إلى أن نشاهد بولس، ومعلّمَ بولس، ونحصل على أكاليلَ لم تمسّها يد، بنعمة ومحبّة سيّدنا يسوع المسيح، الذي يملك المجد والقدرة، الآن ودائمًا، وإلى دهر الداهرين. آمين.

---

(٣٤) رو ١٣: ٩. (٣٥) أع ٢٠: ٩، ١٢.

(٣٦) أع ١٩: ١١، ١٢. (٣٧) ١ كو ١٢: ٣١.

الخطبة الرابعة

دعوة بولس - مُعجزة انتشار الإنجيل

١ . الطوباويّ بولس الذي جمعَنا اليوم، والذي أنار العالم، هذا الرَّجل، حين دُعي قديمًا فقد بصرَهُ؛ ولكنّه بفقدانِ البصَر أصبحَ نورًا للعالَمين. فبما أنّه كان سيِّئَ النّظر أحسن اللّه إليه حين جعلَه كفيفًا، ليستعيد البصَر والبصيرة معًا، وقدّم له شاهدًا على قدرته تعالى، واستحضرَ له مستقبلَهُ سلفًا، بما يحمله من آلام، وبيّن له طريقة التّبشير بالإنجيل، وكيف يجب أن يَتبعه فارغ القلب، مُغمضَ العينَيْنِ. ولكي يفسِّر بولس هذا الطّلب بدقّة أعلن قائلاً: «إن حسبَ أحدٌ منكم أنّه حكيم، فَلْيَصِرْ جاهلاً ليصيرَ حكيمًا[1]». إذ إنّه لم يكنْ من المُمكنِ أن يستعيد نظرَهُ استعادةً ناصعة لو لم يفقده فقدانًا فاجعًا، لو لم يُقْلِعْ عن آرائهِ المُقلِقة، ويستسلِمْ للإيمان استسلامًا كاملاً.

٢. ومع ذلك فلا يذهَبَنَّ أحدٌ، وهو يسمعني أتكلّم هكذا إلى أنّ هذه الدَّعوة كانت عن إكراه، لا، فإنّه كان بإمكان بولس أن يعود إلى موقفه السّابق. هكذا فعل يهوذا، ونبوخذ نصّر، وعليم السّاحر، وسيمون، وحنانيا، وسفيرة، ومُجمل الشعب اليهودي[2]. ولم يكنِ الأمرُ كذلك عند القدّيس بولس، فمُذ ثبتَ

---

(١) ١ كو ٣:١٨.

(٢) طالع ملو ٢٤:١٠ - ١٦؛ ٢٥:١ - ٢١؛ أع ٨:٩ - ٢٤؛ ٥:١ - ١١.

نظرُهُ نحو النّور الصّافي، واصل انطلاقته، وطار نحو السّماء. إذا تساءَلْتَ عنِ السّبب الذي لأجله كُفّ بصره فاسمع ما يقول هو بنفسه: «لا جَرَم أنّكم سمعتُم بسيرتي قديمًا في مِلّةِ اليهود، كيف كنتُ أضطهدُ بإفراط كنيسة الله وأُدمّرها، وكيف كنتُ أفوق في الملّة اليهوديّة كثيرين من أترابي في أُمّتي، إذ كنتُ أغارُ بإفراطٍ على سُنَنِ آبائي[٣]». فبسبب هذه الطبيعة العنيفة الصُّلبة كان بولس بحاجةٍ إلى كابح لئلاّ يحملُه عصفُ غيرته على عدم الانصياع للكلام الذي سمعه. ولهذا كبحَ الله فيه هذه الحميّة الحمقاء، وأخذ يُهدّئ أمواج هذه الثورة المتأجّجة بكفٍّ بصرِهِ، وعند ذلك خاطبه، موضحًا له طبيعة حكمته الصّعبة المنال، وتفَوُّقَ العلمِ الحقيقيّ، ومَن هو الشخص الذي يحاربه، والذي لا يتحمّله الإنسانُ سواء عامَلَهُ بالحُسنَى أو بالعقوبة.

٣. قد يُقال: لماذا لم يَجْرِ هذا الحدث منذ البداية؟ لا تَطرحْ عبثًا مثل هذا السؤال، ولا تكُن فُضوليًّا، بل دَعْ للعناية الإلهيّة غير المُدْرَكة أمرَ اختيار الوقت الملائم. وهذا ما فعله بولس نفسه عندما قال: «فلمّا ارتضى الله، الذي فرزني من جوف أمّي، ودعاني بنعمته، أن يُعلنَ ابنهُ فيَّ[٤]...» فلا سؤالَ عبثيًّا إذن من جهتك، عندما تسمع بولس يتكلّم هكذا. ففي تلك الساعة، نعم في تلك السّاعة كان الحادثُ مفيدًا، بعدما أُزيلَتْ من طريقه حجارةُ العِثار. ولنتّخِذْ من هذا المثل درسًا ولنَعْلَمْ أَنْ لا أحدَ من الذين سبقوه، ولا هو نفسه وجد المسيح بقواه الذّاتيّة، ولكنّ المسيح هو الذي ظهر شخصيًّا، وقد قال: «لستم أنتم

(٣) غلا ١: ١٣ – ١٤. (٤) غلا ١: ١٥.

آخترْتموني، بل أنا آخترْتُكم[٥]». لماذا لم يؤمِنْ وقد رأى أمواتًا يُبْعَثون بقوّة اسمه؟ لماذا لم يتّعظْ وقد رأى مُقْعدًا يمشي[٦]، وأبالسة يَنْهزمون[٧]، ومُخلَّعين ينهضون على أرجلهم[٨]. وكان على علم بهذا كلّه هو الذي كان يتحرّى أعمالَ الرُّسل بدقّة. وعندما رُجمَ اسطفانس كان حاضرًا، وكان يرى وجههُ أشبهَ بوجه ملاك[٩]، ومع ذلك لم يُجْدِهِ الأمرُ نفعًا. لماذا لم يُجْدِهِ الأمرُ نفعًا؟ إنّه لم يكن بعد قد تلقّى الدعوة.

٤. وأنتَ، إذا سمعتَ هذا الكلام، فلا تَرَ في هذه الدَّعوة أيّ إكراه، لأنّ الله لا يُكره أحدًا، بل يَدَعُنا أسيادَ قراراتنا، حتى بعدَ دَعْوته. وهكذا فإنّه تجلّى لليهود، وفي الوقت المناسب، ولكنّهم رفضُوا استقبالَهُ، لأنّهم كانوا يطلبون المجدَ الذي يأتي من البشر. إذا قال غيرُ مؤمن: «كيف يمكنني التّثبّتُ من أنّ بولس تلقّى دعوةً من السّماء وكان فيها اقتناعُهُ؟ لماذا لم تَدْعُني أنا أيضاً؟» نقولُ له: «هل تؤمنُ بهذا الحادث؟ قُلْ لي ذلك بصراحة، أيّها الصّديق؛ فإذا كنتَ تؤمنُ بذلك، كان إيمانُكَ به، علامةً تكفيك؛ وإذا كنتَ لا تؤمنُ بأنّه تلقّى دعوةً من السّماء، فكيف تقولُ: لماذا لم تَدْعُني؟ ولكنَّك إذا آمنتَ بأنه تلقّى الدَّعوةَ كان لك في ذلك علامةٌ تكفيك. فآمِنْ إذن، لأنَّ الله من السماء يدعوك أنتَ أيضاً، والمطلوبُ هو أن تكون نفسُكَ على استعدادٍ مُؤاتٍ؛ وإذا بقيتَ على تصلُّبكَ الأحمق وتَحوّلْتَ

---

(٥) يو ١٥: ١٦. (٦) أع ٣: ١ – ١١.
(٧) أع ٥: ١٦؛ ٨: ٧. (٨) أع ٨: ٧. (٩) أع ٦: ١٥.

عن الطريق المستقيمة، فما من صوتٍ، ولو آتيًا من السماء، يكفي لإنقاذك».

٥. كم من مرّةٍ سمعَ اليهود الصوتَ الآتي من السّماء ولم يُؤمنوا! كم معجزة شاهدوا في العهد الجديد كما في القديم ولم يَتّعظوا! وإنّهم قديمًا، وقد عاينوا ألف مُعجزة، صنعوا لهم عجلاً من ذهب، فيما أظهرَت بغيٌ أريحا إيمانًا رائعًا أمامَ رَسُولَيْهم، ولم تكُن قد شاهدَت شيئًا من مثل تلك المُعجزات[١٠]. حتى وهم في أرض الميعاد ومع ما جرى هناك وأمامَهُم من معجزات لبثوا أقسى من الحجارة؛ أمّا أهلُ نينوى فكان حَسْبُهُم أن يَرَوْا يونان حتّى يؤمنوا ويَهْتَدوا، وبذلك أوقفوا غضب العليّ[١١]. في العهد الجديد عندما كان المسيح في ما بينهم، رآه اللصّ على الصليب وآمن به، أمّا اليهود، وقد رأوه يَبْعثُ الموتى، فأوثقوهُ وصلبوهُ[١٢].

٦. وفي أيّامنا هذه؟ ألم تنقضَّ النّارُ المنبعثة من أعماق هيكل أورشليم على من يقومون ببنائه، وتصدَّهم عن مُحاولتهم الأثيمة[١٣]؟ ومع ذلك لم يَتُوبُوا، ولم يُقْلعوا عن التّصلُّبِ والعناد. وكَمٍ من معجزةٍ جرت بعد ذلك ولم يُفِدْ منها مُشاهِدوها نَفعًا! مثلاً الصّاعقة التي انقضّت على سطح هيكل أبولون عندما اضطَرَّ وسيطُ هذا الشيطانِ الإمبراطورَ الحاكم إلى أن ينقلَ رفات

---

(١٠) يش ٢: ١ - ٢٤؛ ٦: ١٧؛ يع ٢: ٢٥.

(١١) متى ٢٢: ٤١؛ لو ١١: ٢٩ - ٣٠، ٣٢.

(١٢) لو ٢٣: ٢٤.

(١٣) كان ذلك سنة ٣٦٢ عندما دعا يوليانُس اليهود إلى إعادة بناء هيكل أورشليم؛ وقد حدث زلزال شديد أتى على جميع مدن فلسطين، وانطلقت من الأرض شهُبُ نارٍ قضت على عمّال البناء.

أحد الشهداء من الجوار، مدّعيًا أنّه لا يستطيع أن ينطق ويُسمع صوته ما دام الرُّفات في الجوار، وفعلاً كان رُفات الشهيد في الجوار[١٤]. وبعد هذا الحريق أقدم عمُّ الإمبراطور على تدنيس الأواني المقدّسة فمات والدُّودُ ينهشُهُ؛ وأقدم القيّمُ على الكنوز الإمبرياليّة أيضاً على انتهاك حرمةِ الكنيسة فهلك مُنْشقًّا من وسطه. وإلى ذلك فقد غاضت ينابيع بلدنا، جميعُها معًا، وغابت عنّا بعدما كانت تفوقُ الأنهارَ جَريًا، ولم يحدث قطُّ ذلك من قبلُ إلاّ عندما دنّس الإمبراطورُ هذه المنطقة بذبائحَ ومُحرَقات. ما الفائدة من ذكرِ المجاعة التي، في جميع نواحي الأرض وفي عهد هذا الإمبراطور، ضربتِ المُدنَ في وقتٍ واحد، وقتلِ الإمبراطور على يد الفُرس، وخبلِ عقله قبل موته، ووقوعِ الجيش بين البرابرة كما في شَبَكةٍ أو شَركٍ، ثمّ عودته الغريبةِ العجيبة؟ وما إن سقط هذا الإمبراطورُ الكافر وخلفَهُ آخر يتّصف بالتديّن حتى توقّفت في الحال تلك الأحداثُ الأليمة، وعاد الجندُ الذين كانوا مطوَّقين لا يجدون لهم مخرجًا، عادوا بإذن الله محرَّرين من قبضة البرابرة في سلام وأمان. أيّ إنسان لا تردعه عن الكفر، ولا تعيده إلى التقوى أحداثٌ كهذه الأحداث[١٥]؟

٧. والحاضر، أليس أدعى إلى الإعجاب؟ ألم يُعلنِ الصّليبُ ويتقاطرَ الكونُ؟ ألم تُعلنِ الميتةُ المُخزية ويتهافت الجميع؟ ألم يُصلبِ الألوفُ من البشر؟ إلى جانب المسيح نفسه ألم يُصلبْ

(١٤) رُفات الشهيد بابيلاس.

(١٥) كانت وفاة يوليانس الجاحد في ٢٦ حزيران ٣٦٣. وقد خلفه جوفيانس المسيحيّ.

لصّان ويُطْعَنا؟ ألم يقُم حكماءُ كثيرون؟ ألم يَقُمْ عُظماءُ كثيرون؟ من رأى اسمَهُ ينتصرُ إلى هذا الحدّ؟ وفيمَ ذكرُ الحكماءِ والعظماءِ؟ أما من سلاطين ذوي شهرة؟ من سيطر هكذا على العالم في وقتٍ قصير؟ لا تذكُرْ لي الهراطقة من كلِّ صنفٍ ومن كلّ نوع؛ فجميعهم ينادون بمسيح واحد، وإن لم يكن نداء الجميع صافيًا، جميعُهم يعبدون مَن، في فلسطين، صُلبَ في عهد بيلاطس البنطيّ. أليس من شأن هذه الأحداث أن تبيّن قدرتَهُ على وجهٍ أوضح من هذا الصوت الآتي من السماء؟ لماذا تبدو هيمنةُ جميع الملوك دونَ سلطانِ المسيح وانتصاره، على ما قام في وجههما من ألوفِ العقبات؟ خاض الحربَ سلاطينُ، وأشعل نيرانَ القتال طُغاةٌ، وانتفضت شعوبٌ بأسرها، وديانتُنا هي هي على كلّ حال، فلا انقباضٌ ولا انحسار؛ بل لم تزدَدْ إلاّ انتشارًا. قُل لي من أين تأتي قوّةٌ عظيمةٌ كهذه؟

٨. قد يقال انّ المسيح كان ساحرًا! أجل، كان السّاحرَ الوحيدَ الذي سلك هذا السُّلوك. لا شكَّ في أنّكم سمعتم أنّه كان في فارس وفي الهند سَحَرة كثيرون، وأنّه لا يزال فيهما حتّى اليوم سحَرة كثيرون؛ ولكنّ اسمهم لا يعرفه أحدٌ. وقد يُقال إنّ تيانِس[١٦] الدّجّال المشعوذ ظهرَ وصادفَ نجاحًا عظيمًا. أين ومتى؟ في ناحيةٍ صغيرة من العالم، ولوقتٍ قصير؛ اندثرَ بهرَجُه سريعًا، ومات ولم يخلّف وراءَه كنيسة، ولا مؤمنين، ولا أيَّ شيء من

---

(١٦) كان أبولونيوس تيانس في كبادوكية من أتباع الفلسفة الفيثاغوريّة، وصادف في منتصف القرن الأوّل شهرة شعبيّة في الشرق وفي رومة، ونعته بعض الأقدمين بالشعوذة.

ذلك. وفيمَ الكلام على السَّحرة والدّجّالين الماضين؟ ما الذي جرى بعبادة الآلهة حتى توقّفت توقّفًا كاملاً، عبادةَ دودون وكلاروس[١٧]؛ ولجميع الطّقوس الشيطانيّة حتّى صمتت وكُمّت؟

٩. لماذا يَرتجف الشياطينُ لا أمام المصلوبِ فحسبُ، بل أمام مَن ذُبحوا لأجله؟ لماذا يبتعدون بسرعة إذا ذُكر الصليب؟ أَحْرِ بهم أن يهزأوا به؛ فهل كان الصّليب شيئًا حميدًا ومجيدًا؟ كلاّ، بل شائن ومُمتهَن. إنّه عذابُ المحكوم عليه بالموت؛ إنّه للأشرار آخِر الرَّزايا؛ لعنةٌ عند اليهود، وجهالةٌ عند اليونانيّين. لماذا ترهبُهُ الشياطين؟ أَليسَ لِقُدرةِ المصلوب؟ فلو كانوا يخافونه لذاته لكانَ الأمرُ غير لائق بالآلهة (الشياطين). وإلى ذلك فإنَّ أناسًا كثيرين، قبل المسيح وبعده، صُلبوا، واثنينِ إلى جانبه. فلو قيل: «باسم اللّصّ المصلوب، أو باسم هذا أو ذاك من المصلوبين» هل يهرب الشيطان؟ كلاّ، بل يأخذ في الضّحِك. ولو عكستَ الأمر وأضفت إلى الصليب اسم يسوع الناصري، لَفَرَّ الشياطين كما يُفَرّ من أمام النّار. ما جوابُك؟ كيف انتصر؟ ألعلّ ذلك بتضليلهِ الجماهير؟ ولكنّ تعاليمه لا تدلّ على شيء من ذلك، والمضلِّلون يعرفهم كلُّ مكان وزمان. ألعلّ ذلك لكونه ساحرًا؟ ولكنّ تعاليمه لا تشهد بذلك، وكثيرًا ما غصَّ العالمُ بالسَّحَرة. ألعلَّ ذلك لكونه حكيمًا؟ وما أَكثر ما كان في العالمِ حكماء؟ فمن يكون هذا الذي أحرز مثل هذا الانتصار؟ لا أحد، ولو شيئًا قليلاً من ذلك.

---

(١٧) كان في دودون هيكل لزفس قرب غابة سنديان يرى الناس في حفيف أوراق شجرها آيات علويّة. وكانت كلاروس في إيونيا هيكلاً شهيرًا لأبولون.

١٠. فمن الثابت أنّ ذلك لم يكن لكونه ساحرًا أو مُضلِّلاً، بل لِسَعْيِهِ إلى تقويم البشر، ولامتلاكه قوّةً إلهيّةً لا تُقهر، نعم، لأجل كلّ ذلك تغلّب شخصيًّا على الجميع، وأوحى إلى صانعِ الخيام هذا بقدرةٍ تشهد الأحداثَ بعظمتها. رجلٌ كان يقيم في الساحة العامّة، ويتعاطى الدِّباغة، أصبح من القدرة بحيثُ استطاع أن يهديَ إلى الحقيقة الرّومانيّين، والفُرس، والهنود، والشيتيّين، والأحباش، والسّرماطيين، والفرتيّين، والماديّين، والبرابرة، وبصريح الكلام جميع الجنس البشريّ، بأقلّ من ثلاثين سنة. قل لي، أنّى لأليف السَّاحة العامّة هذا، الذي كان يقيم في حانوته ويُخادنُ المِقدَّة، أنّى له أن يعالج بنفسه فلسفةً كهذه، وأن يُقنع بها الآخرين، شعوبَ مُدنٍ أو قُرى، لا ببلاغةٍ قويّة، بل بعكس ذلك أي بكونه مجرّدًا من كلّ ثقافة[١٨]؟ أصغِ إليه، مثلاً يقول في غير خجَل: «إنّي وإن كنتُ أُمّيًّا في الكلام، لستُ كذلك في العلم[١٩]». لم يكن ذا ثروة، وهذا ما يعلنُه هو بنفسه: «نحن، حتى هذه الساعة، نجوع، ونعطش، ونَعرى، ونُلطَم[٢٠]»، وفيمَ الكلام على الثروة، وهو كثيرًا ما يُعوزه القوتُ الضروريّ أو اللباس الواقي؟ أمّا ضعةُ مهنته فيشير إليها تلميذه حين يقول: «انضمّ إلى أكيلا وبرسكلّة وكان من أهل صناعتهما، وكانا صانِعَي خيام[٢١]» لم تقم قيمتُه على أجداده؛ وكيف يتّفق

---

(١٨) قد يكون في هذا الكلام بعض المبالغة، فبولس كان ذا ثقافة يونانيّة ويهوديّة عميقة أشار إليها الذهبيّ الفم نفسه في شتّى أقواله عن بولس.

(١٩) ٢ كو ١١: ٦. (٢٠) ١ كو ٤: ١١. (٢١) أع ١٨: ٣.

ذلك وصنعةً كهذه؟ ولا على موطِنه وأُمّته[٢٢]. ومع ذلك فمُذ ظهر لِلْعلَن أخزى خصومَهُ إخزاءً كاملاً، وقلب جميع الموازين، كالنار الهابطة على القصَب أو على الهشيم، مُرمِّدًا موطنَ الشياطين، ومحوّلاً كلّ شيء إلى ما يتمشّى وإرادتهُ.

١١. والمُعجبُ في الأمر أنّه حصل على مثل هذه القدرة مع ما كان عليه من قلّة الوسائل وضعفها، وأنّ مُعظم التلاميذ كانوا فقراء، من أصلٍ وضيع، بلا ثقافة، ولا غذاء، مغمورين في حياتهم كما في أصلهم. وهذا ما يعلنه هو بنفسه، ولا يُخجلُهُ الكلام على فقرهم، ولا الاستعطاءُ لأَجلهم: «أنا مُنطلق إلى أورشليم لأخدمَ القدّيسين[٢٣]»، وأيضاً: «في أوّل الأسبوع فليعزل كلّ واحدٍ منكم، عنده، ما تهيّأ لهُ أن يَدّخر، لئلاّ يكون الجمعُ عند قدومي فقط[٢٤]». وعن كونِ أكثرِهم غير مثقّفين يقول في رسالته إلى الكورنثيّين: «انظروا إلى المدعوّين فيكم، فليس كثيرون حُكماء بحسب الجسد»؛ وعن أصلهم المتواضع يقول: «ولا كثيرون شُرفاء[٢٥]»، وليسوا فقط غير شرفاء الأصل والنسَب بل انّهم من عامّة الشعب؛ وهكذا «اختار اللّه ما هو ضعيفٌ في العالم، وغير الموجود لِيُعدِمَ الموجود[٢٦]». ومع أنّهم كانوا من أصلٍ وضيع وغير مُثقّفين فهل كانوا يملكون على وجهٍ ما فنّ الحجاجِ والإقناع؟ ولا هذا أيضاً، وقد أوضح هو نفسه ذلك

---

(٢٢) لقد فخَر بولس بانتمائه إلى أمّة اليهود، وبطرسوس موطنه، وبمواطنيّته الرومانيّة (رو ٩: ٣؛ أع ٢١: ٣٩؛ أع ١٦: ٣٧).

(٢٣) رو ١٥: ٢٥.

(٢٤) ١ كو ١٦: ٢٠.

(٢٥) ١ كو ١: ٢٦.

(٢٦) ١ كو ١: ٢٧ – ٢٨.

عندما قال: «لمّا أتيتُكُم لم آتِ ببراعةِ الكلامِ، والحِكمة، لأُشرِكَكم بشهادة الله، لأنّي حكمتُ بأن لا أعرفَ شيئًا، في ما بينكم، إلاّ يسوعَ المسيح، وإيّاهُ مصلوبًا، ولم يكُنْ كلامي وكِرازتي بما لكلام الحكمة من بلاغة[٢٧]».

١٢. ولكن هل يا تُرى كان للرسالة من المحتوى ما يُغري ويستميل؟ اسمع ما يقول أيضاً في الموضوع: «فيما اليهودُ يسألون آياتٍ، واليونانيّون حكمةً، نكرز نحن بمسيحٍ مصلوب، عَثرةٍ لليهود، وجهالةٍ للأُمم[٢٨]». وفي مقابلِ ذلك هل نعموا بالأمن؟ كلاّ، بل كانت الأخطارُ آخذةً بخِناقهم، قال: «قد حَضَرْتُ إليكم في ضعفٍ وخوفٍ وارتعادٍ كثير[٢٩]». ولم يكن وحدهُ المهدَّد، بل كان تلاميذه أيضاً في الشّدائدِ نفسها. قال: «تذكّروا الأيّام السّالفة التي، بعدما أُنِرْتُم فيها، صَبَرْتم على نضالٍ طويلٍ مؤلم، فكنتُم مرّةً مشهدًا للناس بالتّعييرات والمضايق، وأُخرى شُركاءَ للذين يُعامَلون بمِثلِها؛ أجل لقد رضيتُم بانتهاب أموالكم فرِحين[٣٠]». وعندما يكتب إلى التسّالونيكيّين يقول أيضاً: «إنّكم صِرْتُم مماثِلين لكنائس الله التي في اليهوديّة، إذ قد أصابكم أنتم أيضاً من مُواطنيكم ما أصابهم من اليهود الذين قتلوا الربَّ يسوع والأنبياء، واضطهدونا نحن أيضاً؛ الذين لا يُرضونَ اللّهَ البتّة، وقد صاروا أعداءَ جميع الناس[٣١]». وعندما كتب أيضاً إلى الكورنثيّين قال: «إن كنّا نتعزّى فلِتعزيَتِكم العاملة فيكم على

---

(٢٧) ١ كو ٢: ١، ٢، ٤. (٢٨) ١ كو ١: ٢٢ - ٢٣.
(٢٩) ١ كو ٢: ٣. (٣٠) عب ١٠: ٣٢ - ٣٤.
(٣١) تس ٢: ١٤ - ١٥.

احتمال الآلام عينها التي نتألّم بها نحن أيضاً.. كما تشاركون في الآلام كذلك ستُشاركونَ في التعزية أيضاً[٣٢]». وإلى الغلاطيّين: «أعبَثًا قاسَيْتم كلَّ ما قاسَيتم. لا ليس عبثًا[٣٣]».

١٣. فإذ كان الواعظُ رجلاً بلا ثقافة، فقيرًا، وضيعًا، ورسالته لم تكن مُغرية، بل باعثة على العثار، وإذ كان السَّامعونَ له فقراء، بلا نفوذ ولا رصيد اجتماعيّ، والأخطار المتواصلة تُحيق بالمعلّمين والتلامذة، وإذ كان الذي يُبشَّر به مصلوبًا، فما كان سبب هذا الانتصار؟ أليس من الواضح الثابت أنّ في الأمر قدرةً إلهيّة تفوق الوصف؟ أرى أنّ ذلك ثابت في رأي كلّ إنسان. والذي يزيده ثباتًا ما نجده لدى القِوى المُعادية. فعندما ترى القوى المُعادية للحقائق الآنفة تتجمّع: الغنى، ونبالة الأصل، وبسطة السُّلطان، والمهارة الخطابيّة، والأمن، والطّقوس الدينيّة القائمة على سعة، والتصدّي السريع والعنيف لكلّ جديد، وترى مع ذلك أنّ هؤلاء الرّجال القادِمين من المُعسكر الآخر يُحرزون الظّفر، قُلْ لي، فما يكون السبب؟ لقد جرى كلّ ذلك بدقّة كما لو أنّ ملكًا ذا جيش كامل العدّة والعدد، يُعلنُ حربًا نظاميّة، ولا يستطيع التغلّبَ على البرابرة، وأنّ إنسانًا مُعدِمًا، وحيدًا، بلا سلاح، بلا رُمح في اليد ولا مِزراق، وبلا كُسوة على الجسد، يُحرز، منذُ بُروزه، ما لم يُحرزه غيره بالسّلاح وبالقوى العسكريّة.

١٤. لا تكُنْ سَيّئَ النيّة، وأيّدِ الحقيقة برأيٍ ثابت، واعبُدْ

---

(٣٢) ٢ كو ١: ٥ – ٧. (٣٣) غلا ٣: ٤.

قدرةَ المصلوب. فإذا أبصرتَ أحدًا يُسوِّر مدُنًا، ويحفر حواليها خنادق، وينصب آلاتٍ حربيّة إلى جانب أسوارها، ويصنع أسلحةً، ويُجنّد جنودًا، ويمتلك من المال شيئًا لا حدّ له: وهو لا يقوى على السيطرة والهَيْمنة على مدينة واحدة، ومن جهة أخرى رأيتَ إنسانًا يندفع، ولا شيءَ على جسمه، ولا يستعين إلاّ بيديهِ، ويهاجمُ، لا مدينةً واحدة، ولا اثنتين، ولا عشرين، بل آلاف المدُنِ في العالم، ويستولى عليها وعلى من فيها، فليس في وسعكَ أن تقول أيضاً إنّ في الأمر قوّة بشريّة. وقد تكون الحالُ نفسَ الحال في يومنا هذا. ولهذا سمح الله أن يُصلبَ لصّانِ أيضاً، وأن يظهر قبل المسيح بعضُ المُضلّلين، حتّى تُبديَ المقارنة، حتّى لأقصر الناس نظرًا، تَفوّقَ الحقيقة، وتُدرك أنّ المسيح ليس منهم، وأنّ بينه وبينهم بعدًا شديدًا، بل بعدًا لا حدَّ له. فما من شيءٍ استطاع أن يُخْفي مجدَهُ، لا المشاركة في الآلام نفسها، ولا توافُق الأزمان. فإذا كان الصَّليب هو ما يخشاه الشياطين، لا قدرة المصلوب، ففي مشهد اللصَّيْنِ المصلوبينِ معه، ما يُسفِّهُ قولَ القائلين. وإذا كانت صعوبة الأحوال هي سبب كلّ شيء فإنّ تلاميذ ثوداس ويهوذا[٣٤] يدعمون موقفنا، أولئك الذين سعَوْا سَعْينا، ورافق سَعيهم معجزات أُخرى كثيرة، ومع ذلك تشتّتوا وتلاشوا. فإنّ الله، كما سبق لي القول، سمح بذلك حتّى يظهرَ عمَلهُ الخاصّ على وجهٍ شديد الوضوح. وقد سمح كذلك بظهور أنبياءَ كذَبَة في زمن الأنبياء، ورسلٍ كذبة في زمن الرُّسُل، حتّى تُدرك أنّه لا يستطيع أن يدعَ أيًّا من أعماله في الظِّلّ محجوبًا.

---

(٣٤) أع ٥: ٣٦، ٣٧.

١٥. هل من داعٍ إلى أن أعمد إلى طريقةٍ أُخرى لأُبيِّنَ لك قوّة البشارة الإنجيليّة العجيبة والخارقة، وأن أُبرز لك بولس بالغ الأثَر ومجلّيًا بفضلِ أولئك الذين كانوا يحاربونه؟ لقد حدث أن راح بعضُ مُناوئيه يبشّرون في رومة بما يبشّر هو، لإثارة نيرون الذي كان يضطهد بولس، وقد انطلقوا في كرازتهم انطلاقًا امتدّت معه نار الكلمة، وكثُر عدد التلاميذ، وكان ذلك من شأنه أن يُلهب غضب الطاغية، وأن يصبح الوحشُ متوقّدَ الهياج. وقد ذكر ذلك بولس نفسه في رسالته إلى الفيليبيّين: «أريد أن تعلَموا، أيّها الإخوة، أنّ أحوالي قد آلت بالحريّ إلى نجاح الإنجيل حتّى إنّ أكثر الإخوة قد استمدّوا من قيودي ثقةً بالربّ، فازدادوا جرأةً على إذاعة كلمة الله بغير خوف. لا جرَم أنّ فئةً منهم يكرزون بالمسيح بروحِ الحسَد والخصام، بيدَ أنّ الآخرين بنيّةٍ صالحة؛ فهولاء يبشّرون عن محبّة، عالمينَ أنّي قد نُصبتُ للدفاعِ هكذا عن الإنجيل، وأمّا أولئك فعن مُنازعةٍ يبشّرون بالمسيح، وعلى غير خُلوص في الطويّة، ظانّين بذلك أنّهم يزيدون تثقيلاً على قيودي. ولكن، ماذا عليَّ! حسبي أنّ المسيح يُبشّر به على كلّ وجهٍ، بغرضٍ كان أم بإخلاص[٣٥]». هل ترى كيف كان كثيرون يبشّرون بروح الدَّسيسة؟ ومع ذلك فإنّ أعداءَه كانوا يُسْهمون في انتصاره.

١٦. وكان هنالك وفي الوقت نفسه عقبات أُخرى. فالشرائع القديمة ما كانت لِتقي، بل كانت بالحري تشنّ المقاومةَ والحربَ، وكان هنالك لؤمُ المُفترين وجهلُهم. «كانوا، على حدّ قولهم،

---

(٣٥) **فيل** ١: ١٢ – ١٨.

يعترفون بالمسيح مَلِكًا»، ولم يكونوا ليفكّروا في ملكوتهِ السماويّ، هذا الملكوت الرّهيب الذي لا نهاية له؛ بل كانوا يقولون إنّ هؤلاء المبشّرين يذهبون في سَعْيهم إلى إقامةِ سلطةٍ جديدةٍ، مطلقة على سائر أنحاء الأرض. كانوا يَفْترون عليهم، ويحاربونهم؛ الجميع على المستوى العامّ، وكلّ واحد على المستوى الخاص: أمّا على المستوى العامّ فكانوا يتّهمونهم بالعمل على تقويض ركن الدولة والشّرائع؛ وأمّا على المستوى الخاص فكانوا يدّعون عليهم بأنّهم لم يدعوا عيلةً إلاّ مزّقوها وهدموها؛ فالأب يضطهد ابنه، والابنُ ينكرُ أباه، والنساءُ أزواجَهنّ، والأزواجُ زوجاتِهم، والبنات أُمّهاتِهنّ، والأقاربُ أقاربَهُم، والأصدقاءُ أصدقاءهم؛ وهذه الحرب متنوّعة ومتعدّدة الوجوه، تتسلّلُ في الأُسَر، وتحطّمُ روابط الأهل، وتبعثُ الاضطرابَ في مجالسِ الشيوخ، والفوضى في المحاكم؛ كانوا يقولون إنّ عادات الأجداد وتقاليدهم قد قُضيَ عليها، والأعياد وطقوس الآلهة قد أُفسدت بعدما بذلَ المشترعون الأقدمون في سبيلها جُلَّ اهتمامهم وعنايتهم. وكانوا يتّهمونهم بالتسلُّط والطُّغيان ولهذا طُردوا من كلّ مكان. ولا يمكن القول إنّ ذلك كان يجري عند اليونانيّينَ وأنّ اليهود كانوا يلزمون الهدوء. إنّهم بعكس ذلك كانوا يشعلون عليهم حربًا شعواء وشديدة الوطأة وقد توصّلوا إلى اتّهام بولس بأنّه المسؤول عن ضياع حقوقهم الرّومانيّة: «إنّه لا ينفكّ يتكلّم عل المكان المقدّس وعلى النّاموس[٣٦]».

١٧. وفيما كانت النّيرانُ تلتهب في كلّ مكان، آتيةً من

(٣٦) أع ٦: ١٣.

الأُسَر، من المدُن، من الأرياف والأماكن المنعزلة، من اليونانيّين ومن اليهود، من الرؤساء ومن رعاياهم، من أفراد الأُسرة الواحدة، من الأرض ومن البحر، من الأباطرة؛ فيما كان الجميع يتنادونَ إلى العُنف، ويهاجمون بأشدّ قسوةً من قسوةِ الوحوش، كان الطوباويّ بولس يندفعُ في هذه النّيران المتأجّجة، منتصبًا بين الذّئاب، وهدفًا للضربات من كلّ جهة، فلا يقوى عليه أحد بل يقوى على الجميع ويقودهم جميعًا إلى الحقيقة. هل من حاجة إلى أن أذكر مواقع أشدّ إيلامًا؛ تلك التي كان يشنّها الرُّسل الكذَبة وكانت على نفسه الأشدّ وقعًا، وتلك التي كان يبعثها ضعف المؤمنين، إذ انّ كثيرين من المؤمنين كانوا يَتهاوَوْنَ؟ وحتّى أمام هذه المضايق لم ينَلْهُ شيء من الوهن. كيف، وبدعمِ أيّ قوّة؟ قال: «أسلحةُ حربنا ليست بجسديّة، بل هي قادرةٌ باللّه على هدمِ الحُصون؛ فنهدمُ السَّفسطات وكلّ علوٍّ يرتفع ضدَّ معرفة اللّه[٣٧]». لهذا كانت جميع القلوب تتحوَّل وتتلاقى على نغمٍ آخَر.

١٨. وكما تتلاشى الأشواك بسرعة في الأتّون المشتعل، ثمَّ تَخْتفي تاركةً المجال للّهب الذي يطهّر الحقول، كذلك كانت كلماتُ بولس عند انطلاقها ووقوعها في الأسماع، وهبوطها على كلّ شيء، بعنف أشدّ من عنف النار، فيتوارى كلّ شيء، ويدع المجال واسعًا؛ عبادة الآلهة، الأعياد والاجتماعات الاحتفاليّة المقامة لهم، غضب الشعوب وسورتها، تهديدات الطُّغاة، مؤامرات أبناء جِلْدته ولؤمُ الرُّسلِ الكذبة. وأفضل من ذلك: كما

---

(٣٧) ٢ كو ١٠: ٤ – ٥.

إنّه عند شروق الشمس تتبدّد الظُّلمات، وتختبئُ الوحوش وتتوارى، ويهربُ اللّصوص، ويأوي المجرمون إلى كهوفهم، ويبتعد قراصنة البحر، ويتراجع سالبو القبور، ويشعر الزُّناة وناقبو الأسوار بأنّهم سيؤخذون في جرمهم على ضوء الشمس فيبتعدون ويتوارون - إذ ان كلَّ شيء يسطع ويتلألأ، الأرضَ والبحر، بفعل الشمس التي، من فوق، تنير كلّ الأشياء، البحارَ، والجبالَ، والريفَ، والمدينة - كذلك كرازةُ بولس، فما إن تظهر للعيان، وتنتشر في كلّ مكان، حتى ينهزمَ الضّلال، وتعودَ الحقيقةُ، وتنتهي وتختفي شحومُ الذّبائح ودخانها، الصّنوجُ والدّفوف، ولائمُ السُّكر، أعمالُ البغاء والزّنى، وسائر التجاوزات التي لا يليق ذكرها، والتي كانت تجري في هياكل الأصنام، تنتهي ذائبةً كالشمع أمام النّار، ومُتلاشيةً كالقشّ أمام اللّهَب؛ وعلى أنقاض ذلك كلّه تتصاعد شعلةُ الحقيقة، متألّقةً ساطعة، وترتفع حتّى السّماء نفسها، أعلى ممّا كانت تُقاوَم به، وأقوى ممّا كان يُنصب أمامها من عقبات، لا يقوى شيء على انتشارها وانطلاقها القهّار، لا الأخطارُ، ولا جبروتُ الطّغاة القديم، ولا عاداتُ الأجدادِ وتقاليدُهم وشرائعُهم، ولا مقتضياتُ التعاليم الوثنيّة الشائعة، ولا شيء آخر أيًّا كان.

١٩. ولكي تُدركَ ما في هذا من مُعْجِز، هدِّدِ اليونانيّين، لا أقولُ بالأخطار، ولا بأحكام الموت والجوع، بل بخسارةٍ قليلة من المال، تجدْهم في الحال ينقلبون على مُعتقَدهم، وليس الأمرُ كذلك في ديانتنا؛ فإنّها، وأن بُتِرت أعضاءُ أبنائها، أو ذُبحوا، أو تعرّضوا لحروبٍ منتشرة في كلّ مكان ومتنوّعة الوجوه، لم

تزدَدْ إلاّ ازدهارًا. ولماذا التكلُّم على إغريقِ اليوم، على هؤلاء السَّفلة الحقيرين؟ فلنُبرِزْ أولئك الذين كانوا جهابذةَ الأمس، واشتهروا في الفلسفة، أفلاطون، ودياغوراس[٣٨]، وفيلسوف كلازومانس[٣٩]، وآخرين كثيرين من هذا المستوى، تَلْمَسْ حينذاك قوّة الكرازة الإنجيليّة. عندما تناول سقراط الشّوكران مرّ بعض تلاميذه إلى ميغارس خشيةَ أن ينالهم ما ناله؛ وأُبعد الآخرون وضيِّق عليهم، ولم يكن لهم أيّ أثر ما خلا امرأةً واحدةً منهم[٤٠]. أمّا فيلسوف كيتيون[٤١] فلم يترك جمهوريّة إلاّ في ما كتبه، وهكذا أنهى حياته. لم يكن أمام هؤلاء أيّ عقبة، وأيّ خطر، ولم تكن حياتهم مغمورة؛ وكانوا ذوي بلاغة، وثروة، وينتمون إلى وطن عالميّ الشهرة، ومع ذلك لم يكن لهم أيّ أثر. تلك طبيعة الضلال، فإنّها، وإن خلا طريقها من أيّ إزعاج، تذوب وتندثر؛ وتلك طبيعة الحقيقة، فإنّها، وإن حاربها الكثيرون، تزداد قوّةً وصمودًا.

٢٠. هذا ما توضحه حقيقةُ الأحداث، ولا حاجةَ من ثمَّ إلى خُطبٍ وإلى كلام، إذ انّ الكونَ يرفع الصوتَ من جميع جوانبه، الأريافُ والمدُن، البحرُ والبرّ، المناطق المسكونة وغير المسكونة، وقممُ الجبال كذلك. فإنّ الله لم يدع أيضاً المناطق

---

(٣٨) دياغوراس فيلسوف وشاعر عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

(٣٩) هو أناكساغورس الذي أنشأ مدرسة في أثينا نحو سنة ٤٧٥، ومات منفيًّا سنة ٤٢٨.

(٤٠) قد تكون هذه المرأة ذيوتيمي التي أبرزها أفلاطون في «الوليمة».

(٤١) هو زينون مؤسّس الرّواقيّة.

الصحراويّة بدون أن تنعَم بمواهبه[٤٢]؛ فقد غمرها بنِعَمِهِ التي أتانا بها عندما نزل من السماء، بوساطة لسان بولس، وبفضل النعمة التي استقرّت فيه؛ إذ إنَّ هذا الرَّجل قد أبدى من الغَيرة ما يتناسب والموهبة التي حصل عليها، فتألّقت فيه النّعمة تألُّقًا قلَّ مثيلُه، وأكثر ما ذكرنا من الصوالح إنّما نِيلَ بفضل كلمته.

٢١. بما أنّ الله قد شرَّفَ البشريّة إلى حدّ أنَّ إنسانًا واحدًا أنجز كلّ هذه المآثر، فلنسعَ إلى مساواة بولس، لِنَقتدِ به، لنبذل جهدنا في التوصّل إلى ما وصل إليه، وليس الأمرُ مستحيلاً. كثيرًا ما قلتُ وإنّي لن أتوقّف عن القول بأنه كان ذا جسدٍ كجسدنا، وذا طريقة كطريقتنا في التّغذّي، وذا نفسٍ كنفسنا، ولكنّه امتاز بإرادةٍ عجيبةٍ وغيرةٍ ملتهبةٍ، وفي هذا كانت عظمتهُ. وهكذا فلا يتراخَينَّ أحد ولا ينتبذنّ أحدٌ من موقعه. فإنّك إن أحسنتَ تجهيز نفسك لا يمنعك مانع من نيل النعمة نفسها. «الله لا يُحابي الوجوه»[٤٣]: هو الذي أنشأهُ، وهو الذي أتى بك؛ إن كان سيّدَهُ فهو سيّدُك أيضاً؛ وإن أشاد به علنًا، فهو يريد أن يكلّلك أيضاً. فلنُقدّم له ذواتِنا، وَلْنُطهِّرْ نفوسَنا حتّى إذا نِلْنا بدورنا النعمةَ بغزارة، نحصل على الصّوالح نفسها، بنعمة ومحبّة سيّدنا يسوع المسيح الذي يملك المجد والقدرة إلى دهر الداهرين. آمين.

---

(٤٢) يشير الذهبيّ الفم إلى الحياة النّسكيّة التي ازدهرت إذ ذاك في شماليّ أنطاكية، وفي مصر وآسية الصُّغرى وفلسطين.

(٤٣) أع ١٠: ١٤؛ رو ٢: ١١.

الخطبة الخامسة

إيكونوميّة الرّسول بولس

١ . أين هم الآن أولئك الذين يُلقونَ المسؤوليّة على الموت مُدّعين أنّ الجسدَ الواهي والخاضع للفساد هو في نظرهم العائق الذي يعوق عن الفضيلة؟ فَلْيصغوا إلى فضائل بولس البطوليّة، وَلْيُقلعوا عن هذا الافتراء الذي يوحي به الشيطان. ففي أيّ شيء يُلحقُ الموتُ الضَّررَ بطبيعتنا؟ في أيّ شيء يكون الفساد الطبيعيّ عائقًا عن الفضيلة؟ فكِّرْ في بولس فتجدَ أنّ الموت الذي حُكم به علينا كان لنا مصدرَ نفعٍ جزيل. فلو لم يكن هذا الرَّجُل قابلاً للموت لما كان عبَّرَ بأعماله عمّا قاله أي: «أقسِم، أيّها الإخوة، بالفخر الذي لي بكم في المسيح يسوع، إنّي أموتُ كلَّ يوم[1]». فلا بُدَّ لنا في كلّ مكان من الجرأة والشّجاعة، ولا شيء يعوقُنا عن أن يكون لنا محلّ في الطّليعة. ألم يكن هذا الرّجُل قابلاً للموت؟ ألم يكن بلا ثقافة؟ ألم يكن مُعْوِزًا يعمل كلَّ يومٍ ليعيش؟ ألم يكن له جسدٌ خاضعٌ لشتّى مقتضياتِ الطّبيعة؟ ما الذي منعهُ من بلوغِ هذه العظمة؟ لا شيء. فلا يفقِدْ أحدٌ شجاعته لكونه فقيرًا، ولا يبتئس أحدٌ لكونه غير مُثقّف، ولا يحزَنْ أحدٌ لكونه من عامّة الشعب، بل فليكنْ ذلك كلّه نصيبَ

---

(١) ١ كو ١٥ : ٣١.

ذوي النّفوس المُسترخِية، والقلوب الضّعيفة. نعم، هنالك عائقٌ واحد في وجه الفضيلة: نفس فاسقة وخُلُقٌ مائع؛ ولا قيمة لشيءٍ خالٍ من المحبّة. فالطوباويّ بولس، الذي جمعنا اليوم يُبدي ذلك بجلاء. فكما أنّ حالهُ لم تُسِئْ إليه، كذلك لم توفّر للوثنيّين حالُهم المختلفة أيّ نفع، لا مهارتُهم في الخطابة، ولا ثروتُهم الواسعة ولا نَسَبهم الرَّفيع، ولا شُهرتُهم العظيمة، ولا بِمُمارسة السلطة.

٢. فيمَ الكلامُ على البشر؟ وبكلام أدقّ، إلى متى أتوقّف في خطابي على مستوى الأرض، عندما يُتاح لنا الكلام على القوّات العُلويّة، السَّلاطين، وعلى وُلاةِ عالمِ الظُّلمة هذا أيضاً[٢]؟ أيّ فائدةٍ أفادوا من طبيعتهم السّامية؟ أليس على جميع القوّاتِ السماويّة أن يمثلوا أمام بولس وأمام من يُماثلونَه؟ «أوَ ما تعلمون أنّا سندينُ الملائكة فكم بالأحرى نقضي في شؤون هذه الحياة[٣]؟» فلا نبتئسَنّ لشيءٍ إلاّ لما هو في نطاق الفِسق، ولا نجعلنّ فرحنا وسعادتنا إلاّ في الفضيلة. فإذا كانت هي التي نسعى إليها بحرارة كانت طريقُنا إلى مشابهة بولس خالية من كلّ عائق.

٣. لم يبلغِ الرَّجلُ هذا السُّموّ بقوّةِ النّعمة وحدها، بل بإرادتهِ الشَّخصيّة أيضاً، وكان عمل النعمة مُزامنًا لعمل الإرادة فيه. ذلك أنّه ملَك إلى أقصى حدٍّ كنزيْن: المواهب الآتية من روح الله، والقوى الصّادرة عن الإرادة الشخصيّة. هل تريد أن تعرف عمل الله؟ كان الشياطين يخافون ملابس بولس[٤]. ولكن ليس

---

(٢) أف ٦: ١٢.　　(٣) ١ كو ٦: ٣.　　(٤) أع ١٩: ١٢.

هذا ما أُعْجَبُ به، ولا كونُ ظلِّ بطرسَ يشفي المرضى. ما أُعجَبُ به هو أنّه قبل أن ينالَ المواهبَ الإلهيّةَ منذ البدء وقبلَ كلّ شيء، أنجز من المعجزِ ما يأتي: قبل أن يملك هذه القدرة الخارقة، قبل أن ينالَ وضع الأيدي، اضطرمَ بغيرةِ المسيح إلى حدٍّ أنه أثار في وجههِ وعليه الشعبَ اليهوديَّ كلّه. وعندما وجد نفسه بين أخطارٍ شديدة أحدقت بالمدينة كلّها، دُلّيَ من نافذةٍ في السّور، وما إن نال الأرضَ بقدمَيْهِ، وقد طرح الخوفَ والجبنَ جانبًا، اشتدّت به الغيرة الرسوليّة. ولئن تجنّب الخطر لمواصلة رسالته على وجهٍ أفضل، فإنّه لم يتهرّب قطّ عندما كان يدعوه واجبُ تعليم الإنجيل؛ بل بعكس ذلك كان ينظر إلى الصليب ويمشي في إثره. وكان مشهد اسطفانس لا يزال أمام عينيه، ولاسيّما اليهود وهم يصبون إلى القتل، ويرغبون في امتصاص دمه. لم يكن في الحقيقة ليرميَ بنفسه في المخاطر بغير تبصُّر؛ ولكنّه كان، من ناحيةٍ أخرى، إذا لجأ إلى الفرار، لا ينقص فيه العزم ولا تتضاءل عنده الهمّة. كان شديدَ التعلّق بالحياة الحاضرة طمعًا بالفائدة التي تُمكن الاستفادة منها، وكان شديد الاستخفاف بها بسبب الفلسفة التي كانت تبعثُ فيه هذا الاستخفاف، أو بالحريّ بسبب اندفاعه في طريقه إلى المسيح[٥].

٤. فإنّي أقول دائمًا في شأنه، ولن أتوقّف أبدًا عن القول بأنْ لا أحد، في موقفينِ متناقِضينِ، استطاع أن يسلكَ بهذه العناية الدّقيقة، مسلكًا مزدوجَ البُعْد في آنٍ واحد. لا أحد تعلّق بالحياة الحاضرة هذا التعلُّق، حتّى من الذين أُغرموا بها، ولا أحد

---

(٥) فيل ١ :٢٣.

حقرَها إلى هذا الحدّ حتى من الذين بلغوا القمّة في التقشُّف. كان هذا الرَّجُل منزّهًا عن كلّ رغبة، ولم يَمِل إلى أيّ شيء في هذا العالم، ولكنّ رغباته كانت أبدًا متّفقةً وإرادة الله. أحيانا يُعلن أنّ التلبُّث ههنا أشدّ إلحاحًا[٦] من اللحاق بالمسيح والتّعاطي معه، وأحيانًا يجد في التلبُّث عبئًا ثقيلاً ومؤلمًا إلى حدّ أنّه يئِنُّ ويستعجلُ الموت[٧]. لم يكن له من الرّغبات إلاّ نوع واحد، تلك التي تُغنيه في نظر الله، حتى إذا خالفت هذه الرّغبات رغباته السّابقة. أجل، كان بولس شخصاً متنوّعًا ومتعدّدًا، ولم يكن ذلك عن مخادَعةٍ ورئاء، معاذَ الله، ولكنّه كان أبدًا يتكيّف وما تقتضيه البشارة الإنجيليّة وخلاصِ البشر، وكان في ذلك يمشي في إثر معلّمه.

٥. فالله أيضاً ظهر في شكل إنسان عندما كان هذا الظُّهورُ ضروريًّا، لا في النار كما اقتضتِ الحالُ قديمًا، ولا بشكلِ جنديٍّ مسلّح، أو بشكل شيخٍ تارةً في النسيم وطورًا على شكل مسافِر[٨]، أخيرًا في حقيقة الطبيعة البشريّة التي قادته إلى تقبُّل الموت. ولا يأخذنَّ أحدٌ قولي «عندما كان ذلك الظّهور ضروريًّا» على معناه الحرفيّ، فليس هنالك ضرورة بالمعنى الدقيق، بل دافِعٌ من محبّة الله للبشر. وهنالك من الأقوال مثل «الجالس على العرش»، «الجالس على الكروبين[٩]...» جميع هذه الظُّهورات

---

(٦) فيل ١: ٢٤. (٧) ٢ كو ٥: ٤؛ فيل ١: ٢٣.

(٨) راجع خر ٣: ١ – ٦؛ يش ٥: ١٣؛ دا ٧: ٩ – ١٤؛ ٣ ملو ١٩: ٩ – ١٣؛ تك ١٨: ١ – ٥.

(٩) راجع ٤ مل ١٩: ١٥؛ مز ٧٩: ٢.

كان يلجأُ إليها وفقًا للأحوال. لهذا جعل النبيُّ أيضاً يقول: «لقد أكثرتُ من الرُّؤى وعلى ألسنةِ الأنبياء مثَّلْتُ الأمثال[١٠]».

٦. وهكذا فبولس أيضاً لم يكن ليستحقّ اللوم، وهو يقتدي بمعلّمه، فيظهر تارةً يهوديًّا، وتارةً متحرّرًا من النّاموس[١١]، يتقيَّدُ بالناموس تارةً، وتارةً يستهينُ به؛ ثمّ إنّه تارةً يتعلّقُ بالحياة الحاضرة، وتارةً يزدريها؛ تارةً يطلبُ مالاً، وتارةً يرفضُ ما يُقدّمُ له؛ تارةً يقدّم ذبيحةً ويحلق رأسه، وبعكس ذلك يُهاجمُ من يقوم بمِثل هذه الأعمال؛ تارةً أيضاً يُبيحُ الختان وتارةً يرفضه[١٢]. لا جرمَ أنَّ في هذا السُّلوك تناقضاً ولكنّ الحكمَ والنيّة، في أصل هذه الأعمال، على اتّفاق، وهما في الحقيقة وفي العُمق شيء واحد؛ إذ كانا يهدفان إلى خلاص من يسمعه ومن يراه. لهذا كان تارةً يُشيد بالناموس وتارةً يُلغيه. وهكذا كان متنوّعًا ومتعدّدًا لا في أعماله وحسبُ، بل في أقواله أيضاً، بدون تغيير في الرّأي، وبدون تبديل خُلقهِ؛ كان أبدًا هو إيّاه، وفي كلّ حال من الأحوال التي ذكرناها كان يماشي حاجات السّاعة، ولا تَلُمْهُ إذن على هذا السلوك، بل فَلْيكنْ ذلك داعيًا إلى الإشادة بمناقبهِ إشادةً لا حدّ لها، وإلى مَنْحِهِ الإكليلَ الذي يستحقّه.

٧. تلك حالُ الطّبيب، عندما تراهُ تارةً يَكْوي جرحًا، وأُخرى يُداويه؛ تارةً يعمدُ إلى حديد آلةٍ وأُخرى إلى مَرهم؛ تارةً يمنعُ

---

(١٠) هو ١٢: ١٠.

(١١) ١ كو ٩: ٢٠ – ٢١.

(١٢) راجع أع ٢٤، ١٧؛ رو ١٥: ٢٦ – ٢٨؛ أع ٢٠: ٣٣، ٣٥؛ ١٨: ١٨؛ ٢١: ٢٣ – ٢٤؛ غلا ٤: ٣، ٩، ١٠؛ أع ١٥: ١ – ٢؛ رو ٢: ٢٥، ٢٩...

المريضَ من تناولِ الأطعمة والمشروبات، وتارةً يسمح له بأن يُكثر من تناولها؛ تارةً يأمرُ بتغطيتِه تغطيةً كاملة، وتارةً، عند حصوله على الدفءِ التامّ، يأمرُ له بكأسِ ماءٍ بارد؛ فلا تتّهمهُ بالتقلّبِ وعدم الاستقرار على رأي؛ بل بعكس ذلك تمتدح المهارة عندما تراه يعمد إلى وسائل، هي في الظّاهر متناقضة أو ضارّة، ولكنّها تقود في الوقتِ نفسه إلى العافية. إنّه طبيبٌ حاذق. فإذا كنّا نمتدح الطبيب عندما يلجأ إلى علاجات متناقضة، فيجب علينا، بأولى حجّة، أن نُشيد عاليًا بنفس بولس التي سلكت السلوك نفسه في سبيل المتألّمين؛ فمرضى النفوس كمرضى الأجسام بحاجة إلى حذق في العناية والمعالجة؛ وإنّهم إذا أُهملوا وفقدوا صدق العناية، كان نصيبُهم من الإنقاذ والشّفاء مُعرَّضاً للزّوال.

٨. أمنَ الغريب أن يسلك البشر هذا السلوك، والله نفسه الكلّيّ القدرة يعمد إلى أسلوب الأطبّاء العاديّ، ويأبى دائمًا أن يعاملنا بدون احتراز؟ إنّه يريد أن نحصل على الفضيلة باختيارٍ حُرّ، لا تحت وطأةِ الضغط والقوّة، ولهذا السبب يحتاج أيضاً إلى مداورات، لا عن عجزٍ من قِبَلِه – حاشَ لنا أن نفكّر هذا التّفكير – بل بسبب ضعفنا. يكفيه أن يُشير إشارةً، أو بالأحرى أن يُريدَ حتّى تتحقّق جميعُ رغباته؛ أمّا نحن فمُذ أصبحنا أسيادَ أنفُسنا لا نتحمّل أن نخضع له الخضوعَ الواجب. إذا قادنا مُكرَهين أفقدَنا ما وهبَنا، أي استقلال إرادتنا. فلكي لا تجري الأمورُ على هذا النّحو يَعمدُ إلى مُداوراتٍ شتّى – ولا أقول ذلك عن عبث بل لسبب مواقف الطوباويّ بولس المختلفة، ومهارة سلوكه. فعندما تراهُ يتجنّب الأخطار انظُر إليه بالإعجاب

نفسه الذي تعجبهُ عندما تراهُ يتحدّاها: فإذا كان هذا الموقف الثاني موقف شجاعة، فالأوّل موقف حكمة. اعجَبْ لهُ عندما تراهُ يتكلّم بسلطان إعجابك به عندما تصبح لهجتهُ معتدلة: في هذه يُبدي تواضعًا، وفي الحالة الأولى عزّةَ نفس. اعجَبْ به عندما يفخر إعجابك به عندما يرفض المديح: إذا كان موقفهُ الثّاني عن حشمة، فموقفه الأوّل عن قلبٍ يفيض حنانًا وصلاحًا؛ وهكذا فأعماله كلُّها تَصدر عن رغبتهِ في خلاص الجماعة.

٩. لهذا كان يقول أيضاً «إنّا إن تعدَّينا حدودَ التعقُّل، فللّه؛ وإن كنّا متعقّلين، فلكم[١٣]». من الثابت أنّه لم يكن لأحد ما كان له من دَواعي الانزلاق في غرورٍ جُنونيّ، وأنّه لم يكن مع ذلك أحد بعيدًا عن التكبُّر إلى هذا الحَدّ. فكِّرْ إذن «العلمُ ينفخ[١٤]». وجميعنا نستطيع أن نقول ذلك معه؛ ولكنّ العلمَ عنده كان من العلوّ بحيث لم يحُز أحد غيره في العالم ما حازه هو، ولم يكن ذلك ليحملهُ على الزّهوّ، بل على الإغراق في الحشمة. ولهذا يقول: «إنّ عِلمَنا ناقص، ونُبوّتنا ناقصة[١٥]»؛ ويقول أيضاً: «أيّها الإخوة، لستُ أَحسبُ أنّي قد أدركتُ الغاية[١٦]»، وكذلك: «إن ظنَّ أحدٌ أنّه يعلمُ شيئًا، فإنّه لا يعلمُ بعدُ كما ينبغي أن يعلم[١٧]». والصوم ينفخ هو أيضاً، والفرّيسيّ يُبيّن ذلك عندما يقول: «أصوم مرّتين في الأسبوع[١٨]». لم يكن الصِّيام قضيّة بولس بل

(١٣) ١ كو ٥ : ١٣. (١٤) ١ كو ٨ : ١.
(١٥) ١ كو ١٣ : ٩. (١٦) فيل ٣ : ١٣.
(١٧) ١ كو ٨ : ٢. (١٨) لو ١٨ : ١٢.

الجوع الذي كان يُرهقه، ومع ذلك يُطلق على نفسه صفة «السِّقْط»[١٩].

١٠. فيمَ الكلامُ على الصّوم والعلم، وهو، بلا شكّ، يناجي الله مناجياتٍ ساميةً ومتواصلة، لم يُتح قطّ لأيّ نبيّ ولا لأيّ رسول أن يعقدها مع الله، وكانت تزيده اتّضاعًا؟ لا تحدِّثني عمّا أورده في كتاباته، فإنّه أغفَلَ أكثرها: لم يذكر كلَّ شيءٍ تجنُّبًا للاستعلاء، ومن ناحيةٍ أُخرى لم يُغفِل كلّ شيء تسفيهًا للرُّسل الكذَبة. ما كان هذا الرَّجل لِيَسْلكَ سلوكًا طائشًا، فكان التّعقُّل في أساس كلّ عمل يعمله، وكانت المتناقضات تُعالَجُ لديه بحكمة تستجلبُ المديح الدّائم. هوذا ما أُريدُ قولَهُ. إنَّها لفضيلةٌ عظيمةٌ أن لا يتحدّث الإنسان عن نفسه بألفاظِ الزَّهوّ والكبرياء؛ وكان بولس يفعَل ذلك، عند اقتضاء الحاجة، وكان كلامُه كصمته جديرًا بالمديح. لو لم يسلك هذا السُّلوك لَلِيمَ أكثر ممّا يُلام المتباهون في غير الوقت الملائم؛ وهكذا، لو لم يُفاخر لَخَسِرَ بجُبْنه، ورفعَ من شأنِ خصومِه. إنّه كان في كلّ موقف يُحسن الاستفادةَ من الأحوال، ويقْدِم على الممنوع بنيّةٍ مستقيمة، ساعيًا إلى ما هو مُفيد بحيثُ تصبحُ قيمة عمله كقيمة العمل بالوصايا. أجل، لقد نال بولس من المجد بافتخاره أكثرَ ممّا استطاع أن ينالهُ غيرُه بكتمانِ فضائله العظيمة: فما من أحد صنع من الخير بكتمان أفضاله أكثر ممّا فعله هو بنشرها.

١١. والأعجبُ من ذلك أيضاً أنّ بولس وإن قام بنشرها لم

---

(١٩) ١ كو ١٥: ٨.

ينشر منها إلاّ الضروريّ. ولم يكرّر ذلك اعتمادًا منه على سانحة الأحوال الآمِنة، ولكنّه كان يعرف الحدَّ الذي يجبُ التوقّفُ عنده. وقد يرى أنّ هذا الحدَّ لا يكفي للحؤول دون تورّط الآخرين والقيام بالتّباهي لغير داعٍ، فينعت نفسه بالجاهل. وهو لا يسلك هذا السّلوك إلاّ عندما كانت الحاجة تقتضيه. وقد يحذو حذوَهُ آخرون في «غير تبصُّر فيضلّون»، هذا ما يحدث أيضاً للطبيب: كثيرًا ما يصفُ طبيبٌ دواءً ملائمًا وفي الوقت الملائم، فيأتي آخر فيبدّل طريقة استعماله وموعده، ويُبطل عمله.

١٢. ولكي لا يكون الأمرُ كذلك في مثل هذه الحال، يعمد، عندما يُضطرُّ إلى الافتخار، إلى أشدّ الحيطة، محاولاً التخلّص، لا مرّةً، ولا مرّتينِ، بل مرارًا كثيرة. اسمعه يقول: «ليتكم تتحمّلون منّي قليلاً من الجهل[٢٠]». وكذلك: «إنّ ما أتكلّم به، في موضوع الافتخار هذا، لا أتكلّمُ به بحسب روح الربّ، بل كأنّما عن جهل... ولكن مهما يجترئْ فيه أحد أجترئْ فيه أنا أيضاً[٢١]». ثمّ إنّه قبل الخروج من هذه الحيطة الخطابيّة، وعندما همَّ بإطلاقِ افتخاراته كتَمَ هويّته قائلاً: «أعرفُ رجلاً[٢٢]»، وأيضاً: «فمن جهة هذا الرّجُل أفتخر، أمّا من جهة نفسي فلا أفتخر[٢٣]»؛ وأخيرًا: «ها قد صرتُ جاهلاً، إنّما أنتم اضطررتموني[٢٤]». فعندما نرى هذا القدّيس العظيم، وقد اضطرّته الأحوال، يتردّد قبل الأخذ بالافتخار، كفرسٍ وصل إلى شفير مهواة، فأخذ يرفس ويقاوم، أيّ إنسان يكون هكذا جاهلاً وهكذا

---

(٢٠) ٢ كو ١١: ١. (٢١) ٢ كو ١١: ١٧ – ٢١.

(٢٢) ٢ كو ١٢: ٢. (٢٣) ٢ كو ١٢: ٥. (٢٤) ٢ كو ١٢: ١١.

أحمق، مهما كانت الأعمال التي يقوم بها مهمّة، حتّى لا يتجنّب بكلّ قواه مثل هذا السُّلوك، وحتّى لا يعمد إليه إلاّ عند الضّرورة الماسّة؟

١٣. هل تريد، والحالةُ هذه، أن أُريك وجهًا آخر لبولس؟ فمن العجيب أنّه لم يكن يكتفي بشهادة ضميره بل كان يعلّمنا كيف يجب أن نتحيّن كلّ حال من الأحوال. إنّه كان يبرِّرُ نفسه مبرهنًا أنّ الأحوال كانت تفرض عليه موقفه، وكان إلى ذلك يعلّم الآخرين، حتّى، إذا وُجدوا في الحال نفسها، لا ينكفّوا عن مثل هذا السلوك، ومع ذلك بدون أن يتطلّبوه في غير وقتٍ ملائم. كان بولس، في أقواله، يعني تقريبًا ما يلي: إنّه لشرّ عظيم أن يتكلّم الإنسان عن نفسه بألفاظِ الزهوّ والإعجاب، وإنّه لَمن أحقرِ الأمور، يا صديقي، أن يلبسَ الإنسان حلى التّعجرف، في غير داعٍ موجب، وبطريقة الاستعلاء والاستقواء؛ ليس أسلوبُ الكلام هذا أُسلوبَ الربّ، ولكنّه مَظهرُ حمقٍ وجنون، يذهب بجائزتنا، ويُودِي بجميع أتعابنا ومشقّاتنا. هذا ما أراد بولس أن يقوله للجميع، ولاسيّما عندما يحاول التهرُّب، وفي حالة الضرورة. والأهمّ من ذلك أيضاً أنّه، حتّى في حالة الضّرورة، بدَلَ أن ينشر مُنجزاته أمامَ الجميع، كان يُخفي أكثرها، وأعظمَ ما فيها. يقول: «أنتقلُ إلى رؤى الربّ وإيحاءَاته... بيدَ أنّي أكفُّ خشيةَ أن يظنَّ بي أحدٌ فوقَ ما يراني عليه أو يسمعُه منّي[٢٥]». بقوله هذا يعلّمنا جميعًا أن نتحاشى، حتّى في حال الضرورة، عن نشر كلّ ما نعرفه عن أنفسنا أمام جميع الناس، وأن نقتصر من ذلك على ما يفيد سامعينا.

---

(٢٥) ٢ كو ١٢: ١ – ٦.

١٤. هذا ما فعله صموئيل أيضاً؛ وليس من البعيد عن الصواب أن نأتي على ذكر هذا الشخص القدّيس، ولنا في ذلك أيضا فائدة. ففي أحد الأيّام افتخر هذا الرّجل، وبيّن بعض نواحي فضيلته. أيُّها؟ تلك التي كان من شأنها أن تُفيد سامعيه. لم يُلقِ خطابًا طويلاً في العفّة، ولا في التّواضع، ولا في التّغاضي عن الإهانات؛ فيمَ إذن؟ في ما كان مَلِكُ ذلك العهد بحاجة إلى تعلُّمه أوّلاً، تطبيق العدالة، وواجب تنزيه يديه عن أيّ ارتشاء[٢٦].

وداود أيضا، عندما كان يفتخر، كان فخرُهُ بما يقوّم طريقَ سامعه؛ فلم يُشِرْ هذا الرَّجل إلى أيٍّ من فضائله سوى تغلّبهِ على الدُّبّ والأسد[٢٧]: هذا ما قدّمه، ولم يقدّم سواه. الزّيادة على ذلك طمعٌ وتبجُّح؛ ولكن الاكتفاء بما تقتضيه الحال علامةُ رجلٍ كريمِ الأخلاق ينظر إلى صالح العدد الأكبر من الناس. هذا ما كان يفعلهُ بولس أيضاً. كانوا يفترون عليه، قائلين إنّه ليس رسولاً حقيقيًّا، وليس له أيُّ سلطة. فكان من اللازم، بسبب هذه الادّعاءات، أن يُعالج الصّفاتِ التي تُثبت مقامَهُ بوضوح.

١٥. هل ترى ألى أيّ الوسائل عمد لكي يُعلِّم كيف ينبغي الابتعاد عن الفخر بدون داعٍ؟ يشرح أوّلاً أنّه سلك هذا السُّلوك عن ضرورة؛ ويذهب ثانيًا إلى إنزال نفسه منزلةَ الجاهل، وإلى الاعتذار عدّة مرّات؛ وثالثًا يُخفي أهمّ مواطن المدح فيه، وذلك حتى في حال الضّرورة؛ ورابعًا يُخفي نفسه وراءَ شخصٍ آخر، قائلاً: «أعرف رجلاً...» وخامسًا لا ينشر أمام الجميع مُجملَ فضائله، بل يقتصر منها على ما تقتضيه الحال الحاضرة.

---

(٢٦) ١ صم ١٢: ١ – ٥. (٢٧) ١ صم ١٧: ٣٤ – ٣٧.

١٦. لم يكن بولسُ كذلك عندما يفخرُ فقط، بل عندما يثورُ ويستشيط غضبًا. لا شكّ في أنّ إهانة الأخ أمر ممنوع، ومع ذلك فقد قام بولس بذلك عند الاقتضاء وبلباقةٍ أكسبته من التقدير أكثر ممّا تُكسب المعاملة الحسنة من مديح. ولهذا عندما أنزل الغلاطيّين منزلة «الأغبياء[٢٨]» مرّة، ومرّتين، والكريتيّين منزلة «بطون كسولة ووحوش خبيثة[٢٩]» كانت طريقته في الكلام مدعاةً لمدحه. وفي الحقيقة خطَّ لنا حدًّا وقاعدةً، بحيث نستطيع، وفي وجه الذين يقصّرون في واجباتهم نحو الله، أن نقف منهم موقفَ التعنيف بدَلَ المداراة. وهكذا نجد عنده الخطّة المدروسة لكلّ حالة. وهكذا ففي جميع أعماله وفي جميع أقواله يقف موقف الرّجال، عندما يغضب، وعندما يمدح؛ عندما يُظهر الكراهية، وعندما يُظهر المُداراة؛ عندما يُشيد بنفسه، وعندما يتواضع؛ عندما يفتخر، وعندما يظهر بمظهر المَسْكَنة. وفيمَ تستغربُ امتداح الإهانة والتّنديد، وقد امتُدحَ القتل والغشّ والاحتيال في العهدين القديم والجديد[٣٠].

١٧. لِنَتبَحَّرْ بدقّة في شتّى أساليب السُّلوك هذه، ثمّ فلنمتدح بولس، ونُمجّدِ الله، ونسلُكْ معه السّلوكَ نفسه، حتّى ننال نحن أيضاً الخيورَ الأبديّة، بنعمة ومحبّة سيّدنا يسوع المسيح الذي يملك المجدَ والقُدرة، الآن ودائمًا وإلى دهر الداهرين. آمين.

---

(٢٨) غلا ٣: ١، ٣. (٢٩) تي ١: ١٢.

(٣٠) نجد في العهد القديم أقوالاً مختلفة في امتداح الاحتيال (تك ٢٧؛ يهو ١٠: ١١ – ١٣...) والقتل في سبيل تحرير المظلومين أو في سبيل الحفاظ على الإيمان في إسرائيل (١ صم ١٧: ٣٨ – ٥٤؛ ٣ ملو ١٨: ٢٠ – ٤٠؛ يهو ١٣: ٤ – ٢٠...) ونجد في أمثال العهد الجديد امتداحًا للحذق، والاحتيال (لو ١٦: ١ – ٩)؛ ونحن نعلم أنّ في العهد الجديد تشديدًا على المعاملة بالحُسنى، وعلى المغفرة والتسامح (متى ٥: ٣ – ١٢؛ ٦: ٤٣ – ٤٨؛ لو ٦: ٢٧ – ٣٨...)

الخطبة السّادسة

أللّوم الموجّه إلى بولس يزيدُه عظمة

١ . هل تريدون اليوم، يا أعزّائي، أن نتغاضى قليلاً عن فضائل بولس العظيمة والعجيبة، ونجعل أمام أَعيُننا ما يبدو أنّ البعض يحاولون التّنديد بها، فنرى أنّ هذه النّقاط كسائر النقاط الأُخرى، تؤُولُ إلى شهرته وعظمتهِ. ما الذي يحمل هؤلاءِ على التّنديد؟ قد يقولون: رأيناه يومًا يخاف ضربات المجالد. نعم، رأيناه، عندما مدّدوه للجَلْد[١]، وليس هذه المرّة وحسبُ، ولكن مرّة أُخرى في شأن بيّاعة الأُرجوان، عندما قاوم من أرادوا أن يخرجوه من السجن[٢]. إنّه بعمله هذا لم يهدف إلاّ إلى تأمين سلامته، وتجنُّبِ الوقوعِ في الشدّة نفسِها. كيف تُرانا نجيب عن ذلك؟ لا شيءَ أدلّ على عظمته السّامية، من الأحداث المذكورة. البرهان على ذلك هو أنه، مع ما في خُلقه من قلّة الجُرأة وشدّة التفكير السَّليم، ومع ما في جسمه من ضعف المقاومة لعنف الجَلدات ومن ارتجافٍ أمام المِجلَدة، كان كالقوّات غير الجسمانيّة يحتقر كلَّ ما يُعدُّ هائلاً، عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك. عندما تراه يحتجّ بشدّة وهو في الآنِ نفسه خائف، تذكّرِ الكلام الشهير الذي اخترق به السَّماء ونافس به الملائكة: «مَن يفصلُنا

(١) أع ٢٢: ٢٥. (٢) أع ١٦: ١٤ - ٤٠.

عن محبّة المسيح؟ الشدّة؛ أم الضّيق؛ أم الاضطهاد؛ أم الجوع؛ أم العُرْي؟ أم الخطَر؛ أم السّيف؟[٣]» اذكُر كلامه الذي أعلن فيه أنّ هذا كلّه ليسَ بشيء: «الضّيق الحاليّ الخفيف يُنشئُ لنا ثِقلَ مجدٍ أبديًّا، يفوق القياسَ في السموّ؛ إذ لا ننظر إلى ما يُرى، بل إلى ما لا يُرى؛ فإنّ ما يُرى إنّما هو وقتيّ، وأمّا ما لا يُرى فهو أبديّ[٤].» أضف إلى ذلك المضايق اليوميّة، الموت الذي كان يعانيه كلَّ يوم[٥]، فإذا فكّرت في ذلك كلّه فانظر بإعجابٍ إلى بولس ولا تنسِبْ إليه الجُبْنَ.

٢. فكلّ ما يبدو ضعفًا في الطّبيعة هو نفسه الدّليل الأقوى على فضيلة هذا الرّجل، إذ إنّه، وإن لم يكُن محرَّرًا من الضّعف العامّ، صار عظيمًا بهذا المقدار. فتراكمُ الأخطار قد يحمل الكثيرين على الظنّ، ولعلّهم قدّروا في الحقيقة، أنّه ما بلغ هذا القدر من العظمة إلاّ لأنّه أرفع من البشر: لهذا السّبب أُعطيَ له أن يتعذّب، لكي تتعلّم أنّه، وإن كان على مُستوى الطّبيعة على نفس مستوى البشر، كان على مستوى الإرادة أعلى منهم، بل على مستوى الملائكة. فإنّه، بنفس لا تختلف عن نفسنا، وبجسد لا يختلف عن جسدنا، كان يتحمّلُ الموتَ مرّاتٍ لا عدَّ لها، ويستخفّ بالشدائد الحاضرة أو الآتية – لهذا فاهَ بأقوالٍ عجيبة بل بعيدة عن إدراك الكثيرين: «أودُّ لو أكون أنا نفسي مُبسلاً عن المسيح من أجل إخوتي ذوي قُرْباي بحسَبِ الجسد[٦]».

---

(٣) رو ٨: ٣٥. (٤) ٢ كو ٤: ١٧ – ١٨.
(٥) ١ كو ١٥: ٣١. (٦) رو ٩: ٣.

٣. فباستطاعتنا، إذا شئنا، أن نسيطر بقوّة الإرادة، على أيّ نزوةٍ من نزوات الطّبيعة، وما من شيءٍ، ممّا فرضه المسيح، مستحيلٌ على البشر. فإذا قدّمنا كلّ ما في وسعنا من غيرة، يُميل الله كفّة الميزان بشدّة إلى ما فيه صالحُنا، وهكذا نُصبح مُحصّنين أمام جميعِ الأخطار التي تُهدِّدُنا. لا ليس الخوف من الجلد هو الذي يستأهل الإدانة، بل السُّلوك مسلكًا غير لائق برجل دين خوفًا من ذلك الجَلْد، بحيث إنَّ الخوفَ من الجَلْد يجعل الإنسانَ المتغلِّبَ في القتال أعظمَ من الذي لا يَخافُه. ففي هذه الحالات يزدادُ ألقُ الإرادة: إذا كان خوف الجَلْد يصدر عن الطّبيعة، فالإقامة الدّائمة على ما ينبغي، بالرُّغم من خوف الجَلْد، تصدر عن الإرادة التي تقوّم خِطّة الطّبيعة، وتتغلّب على ضعفها. وهكذا فأن يكونَ المرءُ حزينًا أمرٌ لا يُدانُ عليه، أمّا أن يتّخذ من الحزن سبيلاً إلى الكلام والسُّلوك على ما لا يرتضيه الله فذلك ما يُدان عليه. لو قلتُ إنّ بولس لم يكن إنسانًا لعرضْتَ لعينيّ النّقص في طبيعته، وردَدْتَ بذلك عليَّ كلامي. ولكن إذا قلتُ وأثبتُّ بقوّة أنّه كان إنسانًا، وأنه وإن كان ذا طبيعة لا تفوق طبيعتنا، كان ذا إرادةٍ أقوى من إرادتنا، كان اعتراضك بلا جدوى؛ أو بالحريّ ذا جدوى، ولصالح بولس. إنّك تُظهر بذلك إلى إي حدٍّ من العظمة توصّل هذا الرَّجُل، الذي، وهو في طبيعةٍ شبيهةٍ بطبيعتنا، امتلك قوّةً تفُوقُ قوّتنا. ولا تكتفِ بأن تُشيد به، بل سُدَّ أفواهَ من تخاذلوا، ولا تدعْ لهم مجالاً لأن يجدوا في تفُوّقِ طبيعته ما يُبرِّرُ موقفهم، بل ٱحملْهم على تنشيط إرادتهم.

٤. وقد يذهبون إلى أنّه خشيَ الموتَ أيضاً. لا شكَّ في ذلك، وهو من ردّات فعل الطّبيعة. ومع ذلك فهذا الرّجل نفسه كان يقول: «ما دُمْنا في هذه الحياة نحنُ مُثْقَلين»[٧]. وكذلك: «نحن أيضاً نئنُّ في أنفُسنا»[٨]. هل لَمَسْتَ كيف يقابل ضعفَ الطّبيعة بقوّةٍ تدعمُ الإرادة؟ وهذا ما يجعل كثيرين من الشهداء عند مثُولهم للعذاب، يذهب لونُهم أمام الموت، ويشتدّ عليهم الخوف والقلق، وهم بذلك يثيرون الإعجاب، لأنّهم مع خوفهم الموتَ لم يهربوا منه من أجل يسوع. وتلك حال بولس، فإنّه، وإن خشيَ الموت، لا يرفض الجحيم[٩] من أجل يسوع الذي كان يُحبّهُ حُبًّا جَمًّا؛ ومع ارتعاده لفكرةِ الزّوال، كان يرغب في الانطلاق[١٠]. ولم يكن الوحيد الذي يشعر هذا الشعور فزعيم الرُّسل، بعدما أعلن مرارًا أنّه مستعدّ لأن يبذلَ حياتَه، كان شديد الخوف من الموت[١١] اسمَعْ، مثلاً، بأيّ ألفاظ يتحدّث معه المسيح في الموضوع: «متى شِخْتَ ستمدُّ يدَيْك وآخَرُ يُمَنْطِقُكَ، ويذهبُ بك حيثُ لا تشاء»[١٢]؛ إنّه يشير بذلك إلى ضعف الطَّبيعة، لا إلى ضعف الإرادة.

٥. أثرُ الطّبيعة يظهرُ دائمًا، حتّى بالرُّغم منّا، ولا أحد يستطيع أن يتغلّب على نواقصها، ولو كان ذا إرادة قويّة وغيرة متّقدة. وليس في الأمر ضَيْرٌ، بل موضوع إعجاب أكبر. فأيّ عنصر اتّهام

---

(٧) ٢ كو ٥: ٤ (٨) رو ٨: ٢٣.
(٩) رو ٩: ٣. (١٠) فيل ١: ٢٣.
(١١) متى ٢٠: ٣٣ - ٣٥؛ مر ١٤: ٢٩، ٣١؛ لو ٢٢: ٢٣؛ يو ١٣: ٣٧.
(١٢) يو ٢١: ١٨.

في أن يخشى الإنسان الموت؟ وفي المقابل، أيّ شيء أدعى إلى المديح من إنسان يخشى الموت ولا تقوده تلك الخشية إلى التّسفُّل في الشعور والعاطفة! فلا يُدانُ الإنسان لكونه بطبيعةٍ ذات شوائِبَ بل عندما يكون عبدًا لتلك الشّوائب، بحيث انّ من يقوى بقوّة إرادته على إصلاح ما ينالنا من ضعفها يكون في الحقيقة عظيمًا. إنّه يُظهر هكذا ما للإرادة من قوّة، ويُسكتُ من يقولون: «لماذا لا نكون بالطّبيعة فُضَلاءَ؟» وما شأن ذلك، أبالطبيعة كنّا أم بالإرادة؟ ولا شكّ أنّ لعمل الإرادة ما ليس لعمل الطّبيعة، وهو يُكسبنا أكاليلَ وسُمعةً حميدة.

٦. وللطبيعة في الحقيقة إسهامٌ كبير، ولكن إذا امتلكتَ إرادةً فاعلة، امتلكتَ كنزًا يفوق إسهامَ الطّبيعة. ألا ترى أجسامَ الشُّهداء، وقد اخترقتها السّيوف، تتهاوى أمام الحديد، وأما إرادتهم فلا تستَسْلِمُ ولا تَقبلُ الانهزام. ألم ترَ في سلوك إبراهيم، قُلْ لي، أنّ الإرادة تغلّبت على الطّبيعة، عندما طُلب منه أن يَذبحَ ابنه[13]، فكان من الواضِح أنّ الأولى كانت أقوى من الثانية؟ ألم يَبْدُ لكَ ذلك جليًّا في سلوك الشّبّان العبرانيّين الثّلاثة[14]؟ ألم تسمعِ المثلَ السّائر عند الوثنيّين والقائل إنّ الإرادة مع الطبيعة طبيعة ثانية؟ أمّا عندي فإنّها الأولى كما أبدت ذلك النماذج السّابقة. هل تُدرك أنّه من الممكن لإنسان أن يحصلَ أيضاً على صمود الطّبيعة إذا كانت إرادته فاعلة ومتيقّظة؛ وأن يكسب ثناءً أوفر إذا انحاز إلى الفضيلة عن رضًى لا عن إكراه؟

---

(١٣) تك ٢٢: ١ – ١٨. (١٤) دا ٣: ٨ – ٣٠.

٧. ومن اللاّفت والرّائع ما يقول بولس: «إنّي أقمعُ جسدي وأستعبدُه»[١٥]. فهو يستحقّ كلَّ مديح لكونه لا يمارس الفضيلة إلى هذه الدرجة إلاّ مع المشقّة، بحيث لا يستطيع من يأتون بعده أن يحتجّوا بيُسْرِه ورخائه لتبرير مُيوعتهم. وعندما يقول: «أنا صُلبتُ لِلْعالم»[١٦]، أَضفِرُ إكليلاً لإرادته. إنّه إذن من الممكِن، نعم من الممكِن تقليدُ قوّة الطّبيعة بنظامٍ للإرادة شديد. وإذا جعلنا أمام أعيُنِنا هذا الرَّجُل الذي كان في ذاته تشخيصًا للفضيلة، نجدُ أنَّ الصّفاتِ التي كان يتحلّى بها بعامل إرادته، عملَ على تثبيتها وترسيخها حتّى بدَت كأنّها طبيعيّة.

٨. لا شكَّ في أنه كان يتألّم حينَ يُجلَد، ولكنّه كالقوّات غير الجسمانيّة التي لا تتوجّع، كان يستخفّ بالآلام، على ما يبدو وذلك من أقواله التي يُتخَيَّل معها أنَّ طبيعته غيرُ طبيعتِنا. فعندما يقول: «صُلِب العالَمُ لي وأنا صُلبتُ للعالم»[١٧]، وكذلك: «لستُ أنا حيًّا بعدُ، بل المسيح، يحيا فيَّ»[١٨]؛ هل يعني ذلك غيرَ أنّه فارقَ جسده؟ ثمّ عندما يقول: «أُعطيتُ شوكةً في الجسد، ملاكًا من الشيطان...»[١٩] ليس لهذا التّعبير معنى سوى الدّلالة على أنّ ألمه كان في جسده وحده. وقد حاول هذا الألم أن يتسرّبَ إلى نفسه، ولكنَّ قوّةَ إرادته حالت دون ذلك. وكذلك عندما يفوه بأقوالٍ كثيرة أعجب من هذه، تعبّرُ عن سرورهِ بالضّربات التي يتلقّاها، وفخره بالسّلاسلِ التي تُقيّدُه[٢٠].

(١٥) ١ كو ٩: ٢٧.
(١٦) غلا ٦: ١٤.
(١٧) غلا ٦: ١٤.
(١٨) غلا ٢: ٢٠.
(١٩) ٢ كو ١٢: ٧.
(٢٠) ٢ كو ١١: ٢٤ - ٢٥؛ فيل ١: ١٢ - ١٤.

ما الذي تُمكن زيادتُه على الكلام الذي أوردتهُ، أي: «إنّما أقمعُ جسدي وأستعبدهُ لئلاَّ أصيرَ أنا نفسي مرذولا بعدما وعظتُ غيري[٢١]»؟ إنّه يشير إلى ضعف طبيعته، كما أنّه في الكلام الآخر يُظهر شهامة إرادته وقوّتها.

٩. هذانِ العُنصرانِ يجتمعانِ معًا عندهُ، فإذا شاهدتَ صفاته العُظمى لا تحسب أنّه يملك طبيعة غير طبيعتنا فتخور عزيمتُك؛ وإذا شاهدتَ عنده حركاتٍ أقلَّ رفعةً لا تَدِنْ هذه النّفس القدّيسة، بل انطلق على مثالهِ ثابتَ العزم والعزيمة في طريق الرّجاء متوخّيًا خلاصَك الأبديّ. وهو يجعل لنعمة اللّه محلاًّ واسعًا في ما يقول، لا عن عبث، بل عن حكمة، لكي يدعوك إلى التفكير في أنْ لا شيء يصدر عنه بمفرده؛ وهو مع ذلك يذكر إسهامَ إرادته، خشيةَ أن تدع العمل كلّه للّه، وتقضي وقتك في النّوم. هكذا تجد عنده نظام كلّ شيء في الحياة في دقّة ووضوح.

١٠. وقد يُعترض أيضاً على أنّ بولس لعنَ يومًا إسكندر النحّاس. وما الأمر؟ فكلام بولس لم يصدر عن غيظ بل عن ألم وللدّفاع عن الحقيقة؛ ولم يكن ألم بولس بسببه شخصيًا، بل لأنّ هذا الرّجُل كان يتصدّى للتّبشير بالإنجيل: «إنّه لم يُقاومني أنا، بل قاومَ أقوالنا[٢٢] جدَّ المُقاومة[٢٣]» فهذه اللعنة تدلُّ على حُبّهِ الشّديد للحقيقة، كما تعمل على تنشيط التّلاميذ؛ إذ إن الجميع أنكروا الموقف كما أنكروا أن لا يُقمع طُغيانُ الذين يتصدّون

---

(٢١) ١ كو ٩: ٢٧.   (٢٢) ١ تيم ١: ٢٠.   (٢٣) ٢ تيم ٤: ١٥.

للكلمة، وهذا ما حمل بولس على هذا الكلام. وقد لعنَ أيضاً أُناسًا آخرين عندما قال: «... إنّه من العدل عند الله أن يُجازي بالضّيق الذين يضايقونهم[٢٤].» لم يتوخَّ عقابهم، معاذَ اللّه، بل سعى إلى تعزية من أُسيئت مُعاملتُهم؛ ولهذا يضيف أيضاً: ويجزي المُضايَقين بالرّاحة[٢٥]». فعندما تكون المضايقة موجّهة إليه يَكون موقفه موقفَ حكمة، ويكون ردّه على مضايقيه كما يلي: «نُشتَم فنُبارِك، نُضطَهدُ فنَحتمِل، يُشنَّع علينا فنُصلّي[٢٦]». وإذا كنتَ تدّعي أنّ أقواله أو أعمالهُ في شأن الآخرين صادرة عن غيظ، كان عليك أن تقول أيضًا إنّ بولس، بدافع الغيظ، أعمى إليماس وشتمه[٢٧]، أو انّ غضب بطرس كان سببَ موتِ حنانيا وسفيرة[٢٨]؛ لا أحدَ جاهل وغبيّ إلى حدٍّ أن يتفوّه بمثل هذا الكلام. ونحن نجد أيضاً أنّ بولس، في أحوالٍ أُخرى كثيرة، يسلك سُلوكًا مؤلمًا في الظاهر، ومنطويًا في الحقيقة على وفرة صلاحه وعطفه؛ مثلاً عندما أَسلمَ إلى الشيطانِ الكورنثيَّ الموسوم بالفحش[٢٩]، فإنّه تصرّفَ بمحبّةٍ عظيمة، وبقلبٍ يفيضُ حنانًا، وقد بيّن ذلك أيضاً في رسالته الثانية[٣٠]؛ كذلك عندما يهدّد اليهود قائلاً: «السُّخط قد حلَّ عليهم حتّى النهاية[٣١]»، فهو لا

---

(٢٤) ٢ تس ١: ٦.
(٢٥) ٢ تس ١: ٧.
(٢٦) ١ كو ٤: ١٢ – ١٣.
(٢٧) أع ١٣: ٩ – ١١.
(٢٨) أع ٥: ٣ – ٥، ٩ – ١٠.
(٢٩) ١ كو ٥: ٣ – ٥.
(٣٠) الشخصان في الحقيقة مختلفان: زاني كورنثس (١ كو ٥: ١ – ٥)، ورجل آخر أهان بولس في شخص أحد ممثّليه، وكان موضوع الكلام في الرسالة الثانية (٢ كو ٢: ٨٤).
(٣١) ١ تس ٢: ١٦.

يسلك هذا السُّلوك عن سخط – وإنّك على كلّ حال تسمعه يصلّي من أجلهم بلا انقطاع – بل لأنّه أراد أن يبعث فيهم الخوف والترفّع إلى حكمة عالية.

١١. وقد يُقال إنّه شتم رئيس الكهنة بقوله: «سيضربُك الله أيُّها الحائط المُبيَّض»[٣٢]. وأنا أعلم أنّ البعض، تبريرًا لهذا القول، رأوا فيه نبوءةً، ولا ألومهم في ذلك، فقد تحقّق هذا الأمر، ومات الرّجل على هذه الصورة. وقد يقوم خصمٌ مُماحك ومُخالِف لهذا الرّأي فيعود إلى كلام بولس قائلاً: حتّى لو سلّمنا بأنّ في الكلام نُبوءة، فلماذا دافع بولس عن نفسه، وأضاف: «ما علمتُ أنّه رئيس كهنة»، نُجيب بأنّ ذلك كان لإرشاد الآخرين، وحضّهم على التّعامل مع ذوي السُّلطة بما يليق، كما فعل المسيحُ نفسُه؛ فإنّه، وإن فاه، عن الكتبة والفرّيسيّين، بأقوال كثيرة، لا داعيَ لإيرادها كلّها، يُعلن قائلاً: «لقد جلس الكتَبة والفرّيسيّون على كرسيّ موسى فمهما قالوا لكم فٱعمَلُوا به وٱحْفَظوهُ»[٣٣]. على هذا جرى بولسُ أيضاً: فقد احترمَ كرامة الشّخص، وكشف في الوقت نفسه عن المُستقبل.

١٢. ومن الثابت أيضًا أنّ بولس انفصل عن يوحنّا (مرقس)[٣٤]، وفي ذلك أيضاً عمِلَ ما يقتضيه التّبشيرُ بالإنجيل. فمن الضّروريّ لمن اضطلع بهذه الخدمة أن لا يسْتَسلم لأيّ استِرْخاء ولا يعروهُ الخوَر، بل أن يكون مِقدامًا ونشيطاً، وأن

---

(٣٢) أع ٢٣: ٣.
(٣٣) متى ٢٣: ٢ – ٣.
(٣٤) أع ١٥: ٣٨.

يُعرض عن هذه المهمّة النّبيلة، إذا لم يكن مؤهّلاً لها؛ وعليه إذا تَجنّد لها أن يُجابهَ الموتَ والأخطارَ ألفَ مرّة، وقد قال المسيحُ بوضوح: «من أراد أن يتبعني فليكْفُرْ بنفسه، وليحمِلْ صليبَهُ ويتبعْني»[٣٥]. فإذا لم يكن على هذا الاستعداد، قاده الجُبْنُ إلى إِهمال عدد كبير من الناس الآخرين، وكان الأجدر به أن يلبث حيثُ هو، وأن لا يهتمَّ إلاّ لنفسه بدَلَ أن يقفَ في المقدّمة ويحملَ عبئًا فوق طاقته: إِنّه يُضيّعُ نفسه، ويُضيّع من أُوكلوا إليه. أليس من الغريب أن ترى رجلاً يجهل مهنةَ القبطان، وفنَّ مقاومةِ الأمواج، يرفض أن يسوق الدّفّة، ولو حاول جمهور من الناس أن يكرهوه على ذلك، وترى بعكس ذلك آخرَ يمضي للتبشير بالإنجيل في غير استعداد وغير أهليّة، ويتقبّل المهمّة في غير تبصُّر، مُعرِّضاً الكثيرين للموت؟ لا، لا القبطان، ولا مُطارِد الوحُوش، ولا مَن اختار مهنةَ المُجالَدة، ولا أيّ شَخص آخَر يُمكن أن تكون نفسُه مستعدّة لمقاومة شتّى أنواع الموت والأعذبة كالذي تجنّد للتبشير بالإنجيل. فالأخطار أعظم، والخصوم أشدّ عنادًا ومقاومةً، والأعذبةُ ليست عاديّة: الرِّهان هو السّماءُ جزاءً، أو جهنّم عقابًا، أي خلاص النفس أو هلاكها. وليس الاستعداد للحرب والجهاد مقصورًا على من تجنّد للتبشير بالإنجيل وحده بل انّه من واجب كلّ مؤمن، لأنّه فُرِض على الجميع، بلا استثناء أحدٍ، أن يحملوا الصّليب ويتبعوا المسيح؛ وإذا كان الأمرُ مفروضاً على الجميع، فهو، بأولى حجّة، على المعلّمين والرُّعاة الذين كان يوحنا، المدعوّ أيضاً مرقس، واحدًا منهم حينذاك. لهذا

---

(٣٥) متى ١٦: ٢٤؛ مر ٨: ٣٤؛ لو ٩: ٢٣.

فُصِل، وبحقّ، إذ إنّه، بعدما جعل نفسه على خطِّ القتال، في الجبهة، أظهرَ استرخاءً وجُبْنًا شديديْن، ولهذا فصلَه بولس عن الآخَرين، حتّى لا يشلَّ فُتورُهُ انطلاقهم.

١٣. ولئن قال لوقا بأن قد وقع بينهما خلاف[٣٦]، فلا تَرَ في ذلك ما يدعو إلى المَلامة. فليس الغيظُ في ذاته علامة سوءِ نيّة، ما لم يصدُرْ عن غيرِ داعٍ مشروع. يقول الكتاب المقدّس: «غضبُ الأثيم لا يُمكن أن يُبرَّر[٣٧]»؛ فليس الغضب في ذاته بل الغضب الجائر. والمسيح يقول: «إنّ كلّ من غضِب على أخيه (ظلمًا) يَستوجب المحاكمة...[٣٨]»، وليس «من غضِب» وحسبُ؛ والنبيّ يقولُ أيضاً: «إسْخَطوا ولا تَخْطأُوا[٣٩]». فلو لم يكن لنا أن نستعمل القوّة الغضبيّة عند الحاجة، لكان وجودها في طبيعتنا من النّوافل، التي لا فائدة منها؛ والأمر ليس كذلك، والخالق إنّما جعَلها فينا لإصلاح الخطأة، وإيقاظِ الكسل وطرْده من النفس، وإنهاض النائم أو المُهمِل من نومه؛ وكحدّ السّيف جعَل في قلبنا قوّة الغضب لكي نُفيدَ منها عند الحاجة. هذا هو السبب الذي جعَل بولس يلجأ إليها غالبًا، وعندما كان يسخط، كان أجدَر بالإعجاب من أولئك الذين يمزجون أحاديثهم باللين، لأنّه كان يسعى، أبدًا وفي الوقت الملائم، إلى ما تقتضيه مصلحة التّبشير بالإنجيل. وليس اللين كذلك في ذاته هو الفضيلة بل اللين الذي تستدعيه الحال؛ فإذا فقدت الحال والداعي كان اللينُ ميوعةً، والغَضبُ غطرسةً.

---

(٣٦) أع ١٥: ٣٩.
(٣٧) سي ١: ٢٨.
(٣٨) متى ٥: ٢٢.
(٣٩) مز ٤: ٥.

١٤. لم أفُه بكلّ هذا الخطاب للدّفاع عن بولس: إنّه ليس بحاجة إلى كلٍّ منّا، لأنّه لا يتلقّى التقريظ من البشر، بل من الله. ولكنّ هدَفي كان أن أُعلّم السَّامعين استعمالَ كلّ شيء في الوقت المُلائم، كما قلت ذلك آنِفًا. هكذا يكون في إمكاننا أن نُفيدَ من كلّ حال، وأن نبلغ المرفأ الذي لا تنتابه الأمواج. مُثقلينَ بثروةِ النّعمة، وننال أكاليلَ غير منقوصة. عسى أن نكون جميعُنا أهلاً لها، بنعمة ومحبّة سيّدنا يسوع المسيح الذي يملك المجدَ والقدرة، الآن وأبدًا، وإلى دهر الدّاهرين. آمين.

الخطبة السَّابعة

تألّق بولس قائمٌ على الصَّليب

١ . كُلّما تقدّمَ حاملو أعلام الإمبراطور، يُعلِن تَقدُّمَهم صوتُ البوق وعددٌ كبيرٌ من الجند، ودخلوا المدُنَ، يتراكضُ الشعبُ كلُّه ليسمعوا صوتَ الآلة، ويُشاهدوا العلَمَ مرتفعًا في العلاء، وبسالةَ من يحمله. وبما أنّ بولس يدخل اليومَ هو أيضاً، لا مدينةَ بل العالمَ كلَّه، فلنتراكَضْ إذن كلُّنا معًا. إنّه يحملُ هو أيضاً علمًا، لا علمَ أحدِ ملوكِ الأرضِ، بل صليبَ المسيح، ملك السَّماء. والماشون أمامه ليسوا بشرًا، بل ملائكة همُّهم أن يُكرموا الرَّمزَ المحمول، ويحرسوا من يحمله بيده. فإذا كان مَن ليس عليهم إلاّ تدبير حياتهم الخاصّة، وليس لهم أيّ مُهمَّة عامّة خصّهم سيّد الكون بملائكة يحرسونهم، على حدّ قول يعقوب: «الملاك الذي رعاني منذُ حداثتي ...»[1]، فكم بالحريّ تكون القوّات السماويّة إلى جانب من تولّوا شؤون العالم، وحملوا مثلَ هذا الحِمْل من النِّعَم. أجل، إنّ من يُكرَّمون هذا التّكريم في نظام هذا العالم يلبسون ألبسةً وعقدًا من ذهب، ويتألّق شخصُهم تألّقًا، أمّا بولس فتلفُّه سلسلةٌ هي له في موقع الذّهب، ويحمل الصّليب: إنّه مُضطَهدٌ، مجلودٌ، جائع.

---

(١) تك ٤٨: ١٥ – ١٦.

٢. فلا تبتئِسْ، يا صاح، لأنّ هذه الزّينة الأخيرة أرفع وأثمن من الأُخرى، وهي ما يُحبّهُ الله: لهذا لم يُثْقِلْهُ حملُها. وهكذا، فمن أعجب الأُمور أن تجعَلَهُ الرُّبطُ وضرباتُ المجالد أكثرَ ألَقًا من رداء الأرجوان والتّاج عند الذين يلبسونهما. نعم كان أشدّ ألَقًا، وليس في كلامي مغالاة، وفي لباسه ما يشهد على ذلك. فإذا جعلتَ على المريضِ أُلوفَ التّيجان، ومِثْلَها من ملابس الأرجوان لم تستطع أن تطرد الحمّى؛ وفي خلاف ذلك إذا لامست ملابسُ بولس[٢] جسمَ المرضى طردَت كلّ مرَض، واللّصوص، عند مرآهم علَمَ الأمير (الصليب)، بدَلَ أن يقتربوا، ألا تراهم ينهزمون ويرجعون القهقرى؟ وكانت الأمراضُ والأبالسة، عند مرأى هذا العلم السّامي، تنهزم. أضف إلى ذلك أنّ بولس، إذا حملَهُ، لم يكن منفردًا بحمله، بل كان يدعو الجميع الى الاقتداء به في حمله. ولهذا كان يقول: «اقْتدُوا بي على المثال الذي تمّ فينا[٣]»، وكذلك: «ما سمعتموهُ منّي ورأيتموهُ فيّ فليكُنْ دَأبكم[٤]»، وكذلك: «لقد وُهِبَ لَكم لا أن تؤمنوا بالمسيح فحسبُ، بل أن تتألّموا أيضاً من أجله[٥]». ولئن شهدنا، في الحياة الحاضرة أنّ المراتب تزداد عظمةً عندما تتجمّع حول شخصيّة واحدة، فإنّنا نجد عكسَ ذلك في المدى الرّوحيّ: فالشَّرف يتألّق بألَق خاصّ عندما يشترك الكثيرون مع الرّأس، وعندما يشعر المُشتركُ بأنّه ليس وحدَهُ، وعندما ينعم كثيرون بالنِّعم نفسِها. ترى جيّدًا أنّ الجميع كانوا يحملون علمَ المسيح، وأنّ كلّ

---

(٢) أع ١٩: ١٢.
(٣) فيل ٣: ١٧.
(٤) فيل ٤: ٩.
(٥) فيل ١: ٢٩.

واحدٍ راح يحمل اسمَهُ إلى الشعوب والملوك، وأنه هو نفسه، بولس، كان يواجهُ الجحيم، ويجابه المآسي. وهذا لم يأمر به أحدًا، لأنّ أولئك الرّجال لم يكونوا قادرين على حمْله[6].

٣. هل أدركتَ ألى أيّ درجة من الفضيلة تستطيع طبيعتُنا أن تتوصّل، وكيف أنَّ قيمة الإنسان لا يعدلُها شيءٌ، حتّى وإن كان ذلك الإنسان في طبيعة مائتة؟ ماذا تستطيع أن تورد أرفعَ من بولس، أو مُساويًا له في الرُّتبة. كم من الملائكة ورؤساء الملائكة يعدلُ هذا الرَّجلُ الذي نطق بهذا الكلام! هذا الذي في جسدٍ مائت وزائل يُضحّي بكلّ ما يملك لأجل المسيح، وبما لا يملك أيضاً – فإنّه ضحّى بالأشياء الحاضرة، والآتية، والعلوّ، والعمق، وكلّ خليقة أُخرى[7] – هذا الرّجل، لو كان ذا طبيعةٍ غير جسديّة، ماذا كان يقول، ماذا كان يفعل؟ وإني إذا كنتُ أُعجَبُ بالملائكة فلأنّهم وُجدوا أهلاً للشّرف الذي نالوا، لا لكونهم بلا جسد. فالشيطان أيضاً بلا جسد، ولا يُرى، ومع ذلك فهو أشقى الخلائق، لأنّه أهان الله الذي خلقه. وإنّا لَنُثبتُ، والحالةُ هذه، أنّ البشر يشقَوْن، لا لأنّهم في جسد، بل لكونهم لا يُحسنون استعمالَه. بولس أيضاً كان في جسد. من أينَ أتته تلك العظمة؟ منه ومن الله؛ فَلئِنْ أتته من الله، فقد أتتهُ في الوقت ذاتهِ من نفسهِ، إذ انّ الله «لا يُحابي الوجوه.[8]» وإذا قلتَ: كيف السبيلُ إلى الاقتداء برجال من أمثال هذا الرَّجل؟ فاسمَعْ ما يقول: «إقتدوا بي كما أنّي أنا أَقتدي بالمسيح[9]». إنّه هو اقتدى بالمسيح،

(٦) رو ٩: ٣.

(٧) رو ٨: ٣٨ – ٣٩.

(٨) أع ١٠: ١٤؛ رو ٢: ١١.

(٩) ١ كو ١١: ١.

أفليس بإمكانك أنت أن تقتدي بمن كان خادمَهُ؟ هو عمِلَ على منافسة سيّدهِ، وأنت أفلا تستطيع أن تنافس خادمًا مثلَك؟ بأيّ حجّة تستطيع أن تتذرّع؟

٤. قد يُقال: كيف اقتدى بالمسيح؟ تَفحَّصْ هذا الأمر من مرحلته الأولى؛ فما إن خرج بولس من الماء الإلهيّ (ماء المعمودية) حتى اندفع بحميّةٍ ملتهبة لم تترك له مجالاً لمواجهةِ أيّ مُرشد: فلم ينتظر بطرس، وقبل أن يجتمع بيعقوب أو بأيّ أحدٍ آخر[(١٠)] اشتعلت فيه الغيرةُ، وألهبَ المدينةَ إلى حدّ أنّها ثارت في وجهه ثورةً عنيفة[(١١)]. وحتّى عندما كان يهوديًّا كان يقوم بأعمالٍ فوق مُستواه، مُوثقًا بالسلاسل، سَائقًا إلى السّجن، مُصادرًا المُمتلكات[(١٢)]. كذلك فعل موسى، فإنّه لم يتلقّ أمرًا من أحد ليرفع ظُلمَ الغُرباء عن أَبناءِ أُمّتِهِ. إنّها أريحيّة نفسٍ نبيلة، وقلبٍ سخيّ، تأبى أن تتحمَّلَ بصمتٍ شقاءَ الآخرين، ولو لم تُنتدب إلى ذلك. لَئِن حقَّ لموسى أن يُسارع إلى نُصرة شعبه، فإنّ الله أيّد عملَهُ عندما أوكل إليه، في ما بعدُ، هذه المهمّة. هذا ما صنعه مع بولس. فإنّ بولس أيضاً أحسن الصّنع، إذ ذاك عندما انطلق يُعلّم الكلمة، وقد أيّد الله ذلك عندما رفعه بسرعة إلى رُتبة معلّمي الكنيسة.

٥ – لو كان سعيُ الرُّسلِ للحصول على مراتبَ وأمجاد بشريّة لاتُّهموا بأنّهم يتوخّوْن ما يرضي أثَرتَهُم؛ ولكن بما أنّهم كانوا

---

(١٠) غلا ١:١٧.

(١١) أع ٩:٢٠ – ٢٥؛ ٢ كو ١١:٣٢ – ٣٣.

(١٢) أع ٩:١ – ٢؛ ٢٢:٤ – ٥.

يَهوُوْن المخاطر، ويتعرّضون لمهالك متعدّدة ومختلفة في سبيل خلاص البشر، جميع البشر، فمن يكون حقيرًا إلى حدٍّ أن يتّهمَهم هذا الاتّهام؟ لقد سلكوا في الحقيقة هذا المسلك لأنّهم رغبوا بشدّة أن يخلّصوا من كانوا في خطر الهلاك: هذا ما يُظهر بوضوح قرار الله؛ وهذا ما يُظهر بوضوح أيضاً هلاك أولئك الذين انجرفوا وراء الميل الذي أتينا على ذكره. وهنالك آخرون تسارعوا وراء السُّلطة، ووراء مركز في الواجهة؛ ولكنّهم ماتوا جميعًا، تارةً فريسةً لِلَّهب[١٣]، وتارةً فريسةً للزّلزال تبتلعُهم الأرض[١٤]: ذلك أنّهم بدلَ أن يفكّروا في حماية الآخرين، كانوا يسعون حبًّا للمرتبة الأولى؛ فعُزِّيًا مثلاً تسرَّع فأُصيبَ بالبَرَص[١٥]؛ وكذلك سيمون تسرّع، فأُثِّمَ ورُشِقَ بالكلام القاسي[١٦]؛ وبولس أيضاً اندفعَ، ولكنّه نال الإكليل، لا إكليل الكهنوت والمكانة العالية، بل إكليل الخدمة، والأتعاب، والمخاطر. وبما أنّه انطلق بدافع غيرة مُتّقِدة، ونشاطٍ عجيب ارتفع اسمُه، وكان منذُ بدء رسالته شهيرًا.

٦. كما أنَّ مَن يتولّى مهمّةَ القيادة، إذا لم يَقُم بمُهمّته كما ينبغي، يستحقّ عقابًا أشدّ، كذلك، إذا قام أحد، بدون تكليفٍ صريح، بمهمّةٍ ما، لا أقول مهمّة الكهنوت، بل بمهمّة الاعتناء بالجمهور، فهو أهل لكلّ مديح. لهذا لم يُخلد بولس يومًا إلى الراحة، هو الأشدّ اضطرامًا من النّار، ولكنّه منذ صعوده من الينبوع المقدّس (ماء المعموديّة) سرَت في عروقه نارٌ محتدمة،

---

(١٣) قض ٤: ٤٩.

(١٤) عد ١٦: ٣١ و ٣٢؛ تث ١١: ٦.

(١٥) ٢ أخ ٢٦: ١٦ – ٢١.

(١٦) أع ٨: ١٨ – ٢٤.

وازدرى المخاطر وهُزْء اليهود واحتقارهم، أو قلّة إيمانهم، أو أيّ عقبة من هذا النوع، وتحوّلت عيناهُ إلى عينَي محبّة، وتحوّلَ عقلهُ إلى عقلٍ آخر، فانطلق بحركةٍ مندفعةٍ، كأنّه السَّيل، وجرَفَ في اندفاعه جميع مواقف اليهود، وحجّهم بالكتاب المقدّس مبيّنًا أنّ يسوع هو المسيح[(١٧)]. لم يكن بعد قد حصل على عددٍ كبير من المواهب الإلهيّة، لم يكن بعد قد نعِمَ بالرّوح القدُس بالدّرجة التي ستُصبح درجته، ومع ذلك اضطرم حالاً، وراح يُغالبُ نفسَهُ، ويحاولُ أن يجدَ عذرًا عن سابق سلوكهِ، ويرمي بنفسه في المعركة الأشدّ عنفًا، والأكثر أخطارًا وهولاً.

٧. ومع هذا الاندفاع الشّديد، والاحتدام النّاريّ، كان ليّن القِياد والخُلق لدى من كانوا يخطّون طريق سلوكه، فيسير في خطِّ هَدْيهم، ومع ما كان عليه من سورةٍ في اندفاع الغيرة، لم يُقاوم مشورَتهم. لقد طلبوا منه أن يسافرَ إلى طرسوس وقبرص[(١٨)]، فلم يُعارِض؛ أشاروا إليه أن يتدلّى في سَلٍّ، فقبِل[(١٩)]؛ نصحوه أن يحلقَ شعرهُ، فلم يرفُض[(٢٠)]؛ ولم يدعهُ التّلاميذ أن يدخلَ المسرح، فأطاع[(٢١)]. وكان في كلّ حال لا يهدف إلاّ إلى صالح المؤمنين، إلى السّلام، إلى الوفاق؛ وكان في كلّ حال شديد التيقُّظ والحيطة في سبيل نشرِ الإنجيل.

٨. فعندما تسمع أنّ بولس أنفذ ابن أُخته إلى قائد الألف[(٢٢)]

---

(١٧) أع ٩: ٢٠ – ٢٢.
(١٨) أع ٩: ٣٠.
(١٩) أع ٩: ٢٥؛ ٢ كو ١١: ٣٣.
(٢٠) أع ٢١: ٢٣ – ٢٤، ٢٦.
(٢١) أع ١٩: ٢٩ – ٣١.
(٢٢) أع ٢٣: ١٦ – ١٨.

لينجو من الأخطار، وأنّه رفع دعواهُ إلى القيصر[٢٣]، وانطلق مسرعًا إلى رومة، فلا تأخُذ كلامه على مأخذ الجُبْن، فالذي كان يَئِنُّ لبقائه في هذا العالم[٢٤]، كيف لا يُؤْثر الانطلاق إلى جوار المسيح؟ والذي كان لا يُبالي بالسّموات ولا بالملائكة لأجل المسيح، كيف يمكن أن تكون له رغبةٌ في أمور الدُّنيا؟ لماذا إذن كان يسلكُ هذا السُّلوك؟ لكي ينصرف إلى الكرازة بالإنجيل، وينطلق أخيرًا من العالم يواكبه عددٌ كبير من الناس المكلّلين بإكليل النّصر. وهكذا كان يخشى أن يغادر هذه الأرض[٢٥] فقيرًا لم يستطع أن يخلّص أغلبَ البشر. لهذا كان يقول: «إنّ التلبّث في الجسد أشدّ لزومًا من أجلكم».

٩. ولهذا أيضاً، عندما رأى بولسُ المجلسَ يميل إلى تبرئتِه، إلى حدّ أنَّ أغريبّا قال لِفِستُس: «لقد كان ممكنًا أن تُطلقَ سراحَ هذا الرَّجل لو لم يرفَعْ دعواهُ إلى قيصر[٢٦]»، عندما رأى بولس ذلك، وهو مقيَّد، ومَقُودٌ مع جمهورٍ من المساجين الذين آقترفوا ما لا يُحصى من الجرائم، لم يَخجلْ بقيودِهِ، بل كان، سحابةَ هذه الرِّحلة البحريّة، يسهر على رفاق سفره، مع علمه بأنّه هو في أمان وحسن مآل، وكان في سلاسله، وفي عُرْض البحر، يفيض فرحًا، كما لو كان موفدًا بمهمّةٍ ذات أهميّة. وفي الحقيقةِ كان مدعوًّا لصراعٍ عظيمِ الأثَر، لهدايةِ مدينة رومة. ومع ذلك لم يغفُلْ عن رفاق سفره، فقد أعاد إلى نفوسهم الصَّفاء عندما روى لهم الرُّؤيا التي رآها؛ وهكذا علمَ جميع المسافرين معه أنّ

---

(٢٣) أع ٢٥: ١٠ – ١١.
(٢٤) رو ٨: ٢٣؛ ٢ كو ٥: ٤.
(٢٥) فيل ١: ٤.
(٢٦) أع ٢٦: ٣٢.

خلاصهم كان عن يده[٢٧]. وكان بولس يقوم بهذه الأعمال، لا زهوًا، بل طلبًا لثقتِهم فيه، والانقياد له. ذلك هو السَّبب الذي لأجله سمح الله بأن يضطرب البحر[٢٨]، وتظهر، على كلّ حال، النعمةُ التي في بولس، سواءٌ أكان ذلك عندما رفضوا تعليمه أم عندما انصاعوا له. إنّه عندما نصحهم بأن لا يركبوا البحر[٢٩] لم يُعيروه آنتباهًا، وقد أحاقت بهم الأخطارُ الشّديدة؛ ومع ذلك لم يكن عبئًا على أحد، بل كان يسهرُ عليهم كما يسهرُ الأبُ على أبنائه[٣٠]، ويحرص على أن لا يهلك منهم أحد. وكم كان في كلامه من لطفٍ بعد دخوله رومة[٣١]، وبأيّ حرّيّةٍ أسكتَ غير المؤمنين[٣٢]. وإنّه لم يتوقّف في هذه المدينة، فغادرها متوجّهًا إلى إسبانية[٣٣].

١٠. كانتِ الأخطارُ تزيدُهُ ثقةً وجُرأةً، لا هو وحدَهُ، بل تلاميذَه أيضاً بسببه. فلو رأوهُ منهارًا أو مستسلمًا للخوف لكان من الممكنِ أن ينهاروا هم أيضاً، ولكنّهم رأوهُ يزداد شجاعةً، ويقابلِ الوقاحةَ والغطرسة بالإقدام، كانوا ينشطون في التبشير بالإنجيل مطمئنّين. وكان يقول في ذلك: «أكثرُ الإخوةِ في الربّ، لثقتهم بقيودي، ازدادوا جُرأةً على النُّطق بالكلمة من غَيرِ خوفٍ[٣٤]». عندما يُبدي القائد الأعلى شجاعةً، لا عندما

---

(٢٧) أع ٢٧: ٢٢ – ٢٥.
(٢٨) أع ٢٧: ١٤ – ٤١.
(٢٩) أع ٢٧: ١٠ – ٢١.
(٣٠) أع ٢٧: ٢٢ – ٢٥؛ ٣٣ – ٣٦.
(٣١) أع ٢٨: ١٧ – ٢٠.
(٣٢) أع ٢٨: ٢٥ – ٣١.
(٣٣) أشار بولس إلى عزمه على السفر إلى إسبانية في رو ١٥: ٢٤ – ٢٨؛ ومن الأرجح أنّه لم يحقّق رغبته.
(٣٤) فيل ١: ١٤.

يذبح ويقتل فقط، بل عندما يكون أيضاً جريحًا، يزيد مَن هم تحت قيادته شجاعةً، وذلك للجروح التي يتلقّاها أكثر من التي ينالها الغيرُ منه: عندما يرونه غارقًا في الدم تُغطّيه الجروح، ومع ذلك صامدًا أمام العدوّ، ومقاومًا بشجاعة، يطعنُ برُمحهِ غير مكترثٍ لآلامه، فإنّهم يشنّون الحربَ هم أيضاً بحميّةٍ أشدّ. هذا ما وقع لبولس. فعندما أبصره تلاميذه في سلاسله يُبشِّر بالإنجيل في السّجن، مجلودًا يجتذب إليه جلاّديه، ازدادوا ثقةً وعزمًا. ولهذا لم يكتفِ بقوله «ازدادوا جرأةً»، ولكنّه أضاف «على النّطق بالكلمة من غير خوف[٣٥]». وبكلام آخر: أصبح الإخوة يتكلّمون بجرأةٍ أشدّ من جرأتهم لو كنتُ مُطلقًا. وكان هو أيضاً يشعر بحميّةٍ أشدَّ: بقدر ما كانت الاضطهادات تحتدم، كان يزدادُ هو صمودًا وثقةً؛ وكان هذا كلّه نقطة انطلاقٍ إلى أُفقٍ أوسع.

١١. في أحد الأيّام، مثلاً، أُدخلَ بولس السِّجن، وكانت عيناهُ تلتمعانِ بألقٍ تزعزعَتْ معه أُسُس السّجن، وانفتحتِ الأبواب، وانحاز السّجّانُ إليه[٣٦]، وكاد القاضي يعتنقُ ما يُبشّر به، وقد قال له: «إنّكَ بقليلٍ ستُقنِعُني أن أصيرَ مسيحيًّا[٣٧]». ومرّةً أُخرى كانوا يرجمونه[٣٨]، وما إنْ دخل المدينة التي كان سكّانها يرشقونه بالحجارة، حتّى هداهم إلى المسيحيّة. قِيد إلى

(٣٥) فيل ١: ١٤.
(٣٦) أع ٦: ٢٥ – ٣٤.
(٣٧) أع ٢٦: ٢٨.
(٣٨) أع ١٤: ١٩؛ ٢ كو ١١: ٢٥.

المحكمة لِيُحاكمَهُ اليهودُ تارةً[٣٩]، والأثينيّون تارةً أُخرى[٤٠]، فانقلبَ القضاةُ إلى أتباعه، والأعدءُ إلى موالين له. وكالنّار التي اجتاحَت موادَّ مختلفة، وراحت تلتهمُ كلّ ما تجدُهُ في طريقها وتزدادُ اضطرامًا واشتعالاً، هكذا انتشر كلامُ بولس، وجذبَ إليه كلَّ من كان على علاقة به، والذين حاربوه، وقد سحرهم كلامه، وأصبحوا مادّة انتشار لهذه النار الروحيّة: بهؤلاءِ كانت الكلمة تتّسع مجالاً وتصلُ إلى غيرهم. لهذا كان يقول: «أحتملُ القيودَ إلاّ أنَّ كلمةَ الله لا تُقيَّد[٤١]». كان يُطرَد، ويُلاحَق، والحصيلة رسالاتٌ ورسُلٌ إلى كلّ مكان. وما كان بإمكان أصدقائه أو أتباعه أن يفعلوه، فعَله أعداؤُه حين لم يدَعُوه يقيمُ في بلدٍ واحد، بل أرسلوا هذا الطّبيب، بفخاخِهم ومُلاحَقاتهم، إلى كلّ مكان، بحيث انّ الجميع كانوا يَسْمَعُون كلمة بولس. كانوا يعيدون الكرّة عليه بالسلاسل فيزيدونَه نشاطاً؛ شرّدوا تلاميذه، فأرسلوا بذلك معلّمًا إلى من لم يكن لديهم معلِّم؛ ساقوهُ إلى محكمةٍ عليا فكان ذلك نعمةً نَعِمت بها مدينةٌ أعظم.

١٢. هذا السببُ عينهُ هو الذي جعل اليهود، في اضطرابهم، يقولون أمام الرُّسُل: «ماذا نصنعُ بهؤلاء الرّجال[٤٢]؟» فإنّ ما نقوم به يزيدهم تأثيرًا. دفعوهُ إلى السجّان وطلبوا تشديدَ الحراسة عليه، ولكنّ السجّان أصبح سجينَ بولس على وجهٍ أشدّ وألزم. جعلوه

---

(٣٩) أع ١٨: ١٢ - ١٦؛ ٢٢: ٣٠ - ٢٣، ١٠.

(٤٠) أع ١٧: ١٨ - ٣٤.

(٤١) ٢ تيم: ٢: ٩.

(٤٢) أع ٤: ١٦.

يُسافر مع المساجين، منعًا لفرارهِ، ولكنّه علَّم أولئك المساجين كلمة الإيمان؛ جعلوهُ يسافر بحرًا فكان ذلك، وإن لم يريدوه، تقريبًا لنهاية ذلك السّفر؛ وفي ما يتعلّق بغرقِ السّفينة، فقد كان له سانحةَ تعليمٍ لمن كانوا يُبحرون معه. هدّدوه بألف عقوبةٍ لكي يحدّوا من تبشيره بالإنجيل، ولكنّ كلمة التبشير كانت تزداد انتشارًا. وكما كان اليهود يقولون في شأن المسيح: «لنقتُلْهُ ولا ندَع مجالاً للرّومانيّين، فيوافون ويدمّرون مدينتنا وأُمّتَنا[٤٣]»، وقد جَرى عكس ذلك تمامًا - فإنّ الرّومانيّين، بسبب قتله، دمّروا أُمَّتهم ومدينتهم، وبحسبانهم أنّهم يقيمون بذلك حاجزًا أمام الكلمة، شجّعوا الكرازة بالإنجيل - كذلك في ما يتعلّق بكرازة بولس، فإنّ الذين عمدوا إلى الدّسائس لاقتلاع الكلمة زادوا في تأثيرها، ورفعوها إلى حدٍّ لا قياس له.

١٣. لِنشكر لله نِعَمَهُ التي أنعم علينا بها، وَلْنُعظِّم الطوباويّ بولس الذي كان الأداة الصّالحة، ولْنصَلِّ حتى ننالَ النعمَ نفسها، بنعمة ومحبّة سيّدنا يسوع المسيح، وليكُنْ به ومعهُ المجدُ للآب والروح القدس إلى دهرِ الدّاهرين. آمين.

---

(٤٣) يو ١١ : ٤٨.

يقولون أمام الرسل: «ماذا نصنع بهؤلاء الرجال؟»[42] فإنّ ما تقوم به يزيدهم تأثيرًا. دفعوه إلى السجّان وطلبوا تشديد الحراسة عليه؛ ولكنّ السجّان أصبح سجين بولس على وجه أشدّ وألزم. جعلوه

---

(٣٩) أع ١٨: ٢٤ – ٢٦؛ ٢٢: ٣ – ٢٣: ١٠.

(٤٠) أع ١٧: ١٨ – ٣٤.

(٤١) ٢ تيم ٢: ٩.

(٤٢) أع ٤: ١٦.

فهرس


قرش جنيه
٣٨ —